مصر الأقدمين

تأليف

حبيب جاماتي

الكتاب: مصر الأقدمين

الكاتب: حبيب جاماتي

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

جاماتي ، حبيب

مصر الأقدمين / حبيب جاماتي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٩٠ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٣ – ٩٤٩ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع : ٧١٤٠ / ٢٠١٩

مصر الأقدمين

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

إهداء

إلى أرواح العلماء الباحثين، سواء أكانوا من العرب الأقربين، أم من الأغراب الأبعدين، الذين اكبوا على التاريخ الذي ليس له بين تواريخ الأمم في الشرق والغرب مثيل: تاريخ مصر الغارق في القدم، ونيلها المبارك، وشعبها العريق يستطلعون خفاياه، ويفكون رموزه، ويستجلون غوامضه، ويساهم كل منهم في مجال اختصاصه، في ترتيب أحقابه، وتنسيق وقائعه، أهدي هذه الحفنة من الأقاصيص، التي تمتزج فيها الحقيقة بالخيال، تحية متواضعة لذكراهم، واعترافاً بجميلهم، وإقراراً بفضلهم، في تدوين أضخم مصنف لأقدم مدينة عرفها البشر!

ح.ج.

تصدير

يجد القارئ في هذا الكتاب مجموعة أخرى من الأقاصيص المستخلصة من "هوامش" التاريخ؛ فالتاريخ سلسلة متواصلة الحلقات من الأقاصيص، فيها الفواجع، وفيها المآسي، وفيها المهازل. والإنسان اليوم هو الإنسان بالأمس، فضائله هي هي، وعيوبه هي هي، والعبر التي نستمدها من وقائع التاريخ لا تقل في روعتها عن العبر التي نستمدها من حوادث الحياة اليومية في مجتمعنا العصري، فهذه الأقاصيص، كما قلت في مقدمات سابقة، فيها تسلية، وفيها درس! وبها عشرون قصة مصرية، وقعت حوادثها في عهود الفراعنة، بطيبة ومنف، وعهد البطالسة بالإسكندرية، وفي خلال الاحتلال الروماني الذي سبق الفتح العربي ببضعة قرون، ووقوع حوادث هذه الأقاصيص في العصور التي ذكرتها يفسر العنوان الذي وضعته لها: "مصر الأقدمين".

إن الشعوب التي لها حاضر تعمل فيه لتأمين مستقبلها، والتي ليس لها ماض تفاخر به، تكثر من التغني بقول القائل: "يا سعد أمة ليس لها تاريخ!" وتحرف هذا القول أحياناً فتجعله: "يا سعد أمة ليس لها مشكلات!" وذلك بإعطاء كلمة "إيستوار" الفرنسية أحد المعنيين: "تاريخ" أو "مشكلة"، ولكن هذا القول، أياً كان المعنى الذي يؤديه، لا ينطبق على الأمم الشرقية عامة، ولا على الشعب المصري ووطنه بصورة خاصة. وعلى هذا، فليس له مكان في لغة التخاطب أو في لغة الكتابة في هذا الجزء من

العالم، والشعب المصري يباهي بتاريخه، ويفاخر بماضيه، ولا يتهرب من مواجهة المشكلات التي تعترضه في تطوره الحاضر، والمتاعب التي تثيرها في طريقه الدسائس الخارجية، والمطامع الإمبريالية. وهو يقول ويردد ولا يبالي: "يا سعد أمة لها تاريخ!" أو "يا سعد أمة لها مشكلات!" فالتاريخ الطويل الذي عاصر الدهر وواكبته الأجيال، إنما هو مصدر قوة وعامل اعتزاز، والمشكلات مهما تتعدد وتتكاثر، إنما من شأنها أن تشحذ الهمم وتحث على العمل، لجعل المستقبل زاهراً وجديراً بالماضي العظيم!

حبيب جاماتي

القاهرة ـ ربيع الآخر سنة ١٣٨٢

سبتمبر – أيلول سنة ١٩٦٢

□

طيف نيتوكريس

كان انتقامها من أعدائها رهيباً، فراحت في النهاية ضحية، ولا يزال طيفها يحوم حول الأهرام!

الملكة نيتوكريس تقيم حفلة صيد على النيل يوم تسلمها العرش – "للمصور هاني ماكارت"

المدينة الضخمة ساكنة هادئة، على ضفاف النيل الجاري بين أحضانها، تحوطه بذراعيها وقد اطمأن إليها واطمأنت إليه، وصب القمر الساطع في كبد السماء الصافية سيلا من أشعته النيرة على "منف" عاصمة الفراعنة ونهرها المقدس المبارك، والناظر إلى تلك الكتل المتتابعة المتراصة من القصور والدور والشوارع والميادين، التي لا ينبعث منها صوت ولا تبدو فيها حركة، لا يتصور أن فتنة هوجاء قد اكتسحت هذه المدينة وروعت سكانها من عهد قريب، لكن الأعين في القصر الملكي ظلت

ساهرة، وركن من أركانه ظل مضاءً، والحركة ظلت قائمة في الردهات والممرات المؤدية إلى ذلك الركن، حيث خلت الملكة إلى نفسها في حجرة زينتها، وانبطحت على الأرض أمام لوحات ملئت بالرسوم والخطوط، وراحت تفحصها وتمعن النظر في دقائقها، فحص العارف الخبير وإمعان العازم على أمر خطير! ودخل شخص على الملكة بلا استئذان، ففطنت إليه من وقع قدميه، وعرفت من هو لأنها لم تكن تسمح لغيره بأن يزعجها في خلوتها، فخاطبته بدون أن ترفع أنظارهما عن اللوحات المبسوطة أمامها، وفي لهجة مزجت فيها الرقة بالحزم:

– لا أرى داعياً لأي تعديل في خطتنا يا ثاناجي، فلم يبق علينا إذن إلا أن نعمد إلى التنفيذ، ونحدد سيره مرحلة بعد مرحلة... أجلس، ولنتفاهم..

اسمها "تيتاكرثي" ومعناه بلغة قدماء المصريين "الحسناء ذات الخدين الورديين" وقد حرف المؤرخون اليونانيون هذا الاسم فجعلوه "نيتوكريس" وهو الذي انتقل إلينا من خلال الأجيال المتعاقبة، وقد حكمت الأسرة السادسة مصر مائة وخمسين سنة، من سنة ٢٦٢٥ إلى ٢٤٧٥ قبل الميلاد، ونقشت على صفحات المعابد والمدافن أسماء ملوكها "بيبي الأول"، و"بيبي الثاني"، و"مونرع"، ولكن الأقدار شاءت أن يختم عهد هذه الأسرة باسم امرأة هي "نيتوكريس"، أول ملكة عرفها التاريخ ..

وقد شاطرت "نيتوكريس" زوجها الشاب عرش مصر عندما خلف عليه الملك "بيبي الثاني"، ولكنه لم ينعم بالملك أكثر من بضعة أشهر، أو بضعة أسابيع، تآمر عليه بعدها أشراف الدولة وقتلوه اغتيالاً، على أمل أن يتقاسموا ملكه فيما بينهم، ويجعلوا من الدولة الواحدة الكبيرة، مجموعة من الدويلات الصغيرة. وكان فرعون القتيل أخاً "لنيتوكريس" وزوجاً لها، ولذلك كان انتقامها له مزدوجاً؛ ففي الليلة التي اقترفت فيها الجريمة، جمعت حولها رهطا من الأعوان المخلصين، الذين ظلوا على ولائهم للأسرة المالكة، واتفقت معهم على التظاهر بقبول ما حدث، والارتياح إلى ما قام به المتآمرون من انقلاب مخضب بالدم. وتحايلت على الناقمين بحيث حملتهم على مفاوضتها في أمر البقاء متربعة على العرش، ريثما يتم الاتفاق بينها وبينهم على إرضاء مطامعهم وتحقيق أغراضهم، دون حاجة إلى استعمال العنف وما يترتب عليه من قلاقل واضطرابات، قد تجرف الأسرة وأصدقاءها وخصومها في تيارها الأهوج..

ودعت الملكة جميع الأشراف إلى نزهة في النيل، بدون استثناء القتلة السفاحين الذين اغتالوا الجالس على العرش، وأعدت لتلك النزهة العجيبة سربا من السفن، زودتها بأفخر الرياش، وأطيب أنواع الطعام والشراب، ومضى ذلك الموكب يمخر عباب النهر، بين أنغام الموسيقى وغناء المنشدين، وجعل المدعوون يتبارون في الأكل والشرب تارة، وفي الصيد تارة أخرى. وقد اعتقدوا أن الملكة فرحة لمصرع زوجها، وأن بقاء امرأة على عرش الفراعنة سيجعله لعبة في أيديهم، وأن شئون الدولة ستكون

رهن رغباتهم وتصرفاتهم، وهل سمع أحد من قبل أن المرأة تحسن سياسة الملك وتصلح للقضاء في أمور الرعية؟

وتبعت هذه الدعوة دعوات متلاحقة متواصلة، وغالت "نيتوكريس" في إكرام الأشراف والتحبب إليهم، وأغدقت عليهم النعم بلا حساب، وأكثرت من استشارتهم والاستنارة بآرائهم، فاطمأنوا إليها الواحد بعد الآخر، وأقروها على عرش زوجها، وراح كل منهم يعلل النفس سراً بامتلاك قلبها في المستقبل، واتخاذها زوجة له، والجلوس معها على أريكة الملك جنباً إلى جنب!

ولما أدركت "نيتوكريس" أن شكوك الأشراف قد تبددت، وأن الشعب لا يضمر لشخصها حقداً، بل لا يبخل عليها بمظاهر العطف والولاء، قررت أن تضرب ضربتها، وكان القائد "ثاناجي" أقرب المقربين إليها، وأوفى الأوفياء لذكرى زوجها القتيل، وأشجع الشجعان بين رؤساء جيشها، وأوفرهم ذكاء وفطنة، فضلاً عما يكنه فؤاده من حب مقيم للملكة الفاتنة، وأمل في أن تقابله، من ناحيتها، بحب يرفعه إلى مصاف الملوك. وقد وقع اختيارها عليه ليكون على رأس المؤامرة التي حاكت خيوطها في عزلة مخدعها، خلال ساعات الليل والنهار، منذ أن أطاحت المؤامرة الأولى برأس زوجها وأخيها.

وقد تفننت الملكة الداهية في إعداد وسائل انتقامها، وأرادت أن تأخذ بثأر الملك والأسرة بصورة لم تخطر من قبل، ولن تخطر من بعد في بال

أحد، ثم وضعت الخطة بنفسها، ورسمت خطوط التنفيذ بيدها، وأطلعت على سرها شخصاً واحداً، هو ذلك القائد المقدام العاشق، ثاناجي، الذي عهدت إليه الملكة في الإشراف على تحقيق ما عزمت عليه.

قالت الملكة وهي تصوب من مقلتيها إلى عيني القائد الولهان سهاماً نفذت إلى فؤاده فضعضعته:

- ثاناجي: لسنا في حاجة يا صديقي إلى إعادة ما قلناه وكررناه أكثر من مرة، منذ أن كشفت لك عن قلبي، وأنضبت إليك بسري، وفي هذه الساعة التي أتخذ فيها أخطر قرار في حياتي، أقول لك أنني سأكون زوجة لك، وستكون رفيق حياتي وتصبح شريكي في الملك، عندما يتم لي الثأر الذي أسعى إليه. والآن، عليك بإعداد العدة للبدء بالعمل، وإنشاء القاعة التي سنقيم فيها المأدبة، وإنجاز السراديب الموصلة بينها وبين مجرى النيل، وأذكر أن مصيرنا إلى الهلاك، لو فطن أحد إلى سرنا، أو فشلنا في إعداد مؤامرتنا أو تنفيذها..

واقتربت "نيتوكريس" من الرجل المأخوذ بسحر عينيها، زاحفة على بطنها، متلوية كالحية، وأحاطت بذراعيها عنق القائد، وقدمت له فمها، فتشابكت شفاههما في قبلة حارة، أفرغت فيها المرأة كل ما في أنوثتها من إغراء، وأفرغ فيها الرجل كل ما يختلج في صدره من حب وعرفان جميل.

كان القصر الملكي وملحقاته أشبه بمدينة قائمة بذاتها، تكتنفه الحدائق والبساتين، وتتخلل الأشجار صفوف لا نهاية لها من النصب

والتماثيل، وتمتد متنزهاته على ضفاف النيل. وهناك، على مقربة من النهر الجاري، وفي ضاحية منعزلة من تلك المدينة الملكية، حفر المهندسون والعمال والأسرى، بإرشاد "ثاناجي" وإشرافه، وشيدوا تحت الأرض قاعة فسيحة، لها منفذ واحد، ودعموها بالأعمدة، وزينوها بأبدع الصور والرسوم، وفرشوها بأفخر الرياش، ونصبوا فيها الموائد المرمرية والمقاعد المموهة بالذهب والفضة، وأوصلوها بمجرى النيل، بسراديب ضيقة مغلقة من الناحيتين بصحائف من الصخر.

ولما انتهى العمل وأصبح كل شيء معداً لتنفيذ ما أضمرته الملكة الداهية، دعت جميع الأشراف الذين اشتركوا في اغتيال زوجها، ولفيفاً من أعوانها المخلصين، إلى مأدبة فاخرة في تلك القاعة، حيث قدمت لهم ألذ ما يمكن أن تشتهيه النفس من مأكل ومشرب، وقامت بنفسها على خدمة ضيوفها، فكانت تطوف مع الخدم والجواري على الموائد واحدة بعد أخرى، وتبالغ في الترحيب بالأشراف، وتوزع ابتساماتها ذات اليمين وذات اليسار..

وبإشارة منها، شرع " ثاناجي" في إخراج الأصدقاء الموالين من القاعة، فأوفد كلاً منهم في مهمة وهمية، وتسللت الملكة نفسها من منفذ القاعة الوحيد إلى حدائق القصر، وتبعها "ثاناجي" وأوصد الباب، ولم يبق في داخل المكان غير الذين كانت الملكة ترغب في القصاص منهم، بعد أن دونت أسماءهم واحداً واحداً، ووثقت من أن كلاً منهم كان له ضلع في المؤامرة السابقة..

وفجأة، رفعت الأبواب الصخرية عن فوهات السراديب، وتدفقت منها مياه النيل إلى داخل القاعة، في هدير ارتعدت له فرائص المدعوين فصحوا من سكرتهم، ولكن بعد فوات الوقت! فقد وثبوا من مقاعدهم مذعورين، وتزاحموا على باب القاعة يطلبون النجاة، وحاولوا أن يسدوا بأجسامهم فوهات السراديب. ولكن مياه النيل المتواطئة مع ملكة النيل، جرفتهم في اندفاعها الهائل، وملأت القاعة شيئاً فشيئاً، فلم تلبث أن أصبحت كالبئر المسدودة، ومات الأشراف جميعاً، إما خوفاً، وإما اختناقاً، وإما غرقاً، وذاقت "نيتوكريس" لذة الانتقام من أعدائها، والثأر لأخيها وزوجها، وبكت الحسناء ذات الخدين الورديين، ولكن دموعها في هذه المرة كان مبعثها التشفي والفرح! غير أن الأرق داهمها منذ ذلك اليوم الرهيب، وهجر النوم أجفانها، وتولاها قلق لم تدرك حقيقة مصدره!.. إنها لا تحب "ثاناجي"، ولكنها وعدته بالزواج، ووعدته بالملك! وهي تسمع صوتاً خفياً يهيب بها من أعماق نفسها، أن هذا الزواج ستعقبه مؤامرة من الطامعين _ وما أكثرهم _ للتخلص منها ومن شريكها.

وقد ظلت المرأة تتخبط في غمرة ذلك القلق أسابيع وشهوراً، وخانها في النهاية جلدها، وانهارت أعصابها، فعولت على وضع حد لذلك العذاب، بالتخلص من الحياة، وفي صبيحة يوم من أيام الصيف البهية، وضعت "نيتوكريس" قرارها موضع التنفيذ، وألقت بنفسها في بئر مملوءة بالرماد، فماتت خنقاً! وأعد لها الشعب مأتماً اشتركت فيه الرعية من أقصى المملكة إلى أقصاها، وحنط الأطباء جثمانها، ووضعوا المومياء في تابوت من

الحجر الأزرق، ودفنت داخل الهرم الثالث، هرم "منقرع" الذي أنجز في عهدها، وكانت وفاتها خاتمة الأسرة السادسة أيضاً..

كان أبعد الناس بأساً، وأشدهم حزناً، بعد موت "نيتوكريس" ذلك الرجل الذي ساعدها على الثأر، وأوشك أن يستحوذ في آن واحد على الملك والصولجان: القائد ثاناجي العاشق المغرم! فقد أصيب المسكين بذهول أفقده صوابه، فجعل يطوف ليلاً ونهاراً حول الهرم الثالث حيث ترقد شريكته وحبيبته، وعبثاً حاول أصدقاؤه أن يعيدوا إليه الثقة والطمأنينة، فقد كان يزجرهم قائلاً: "إنني أراها كل مساء وكل صباح هنا، إنها تخرج من أجلي وتغادر قبرها، إنها تحتضنني، وتخاطبني، وتقبلني!"

وفي ذات يوم، وجد "ثاناجي" ميتاً عند سفح الهرم، وقد أكب على وجهه، وبسط ذراعيه كمن يعانق طيفاً!

ومنذ ذلك الوقت، وعلى مر الأيام، والأعوام، والدهور، راجت تلك الأسطورة المؤثرة التي نقلها إلينا المؤرخون اليونانيون عن الملكة نيتوكريس وطيفها الذي يخرج من هرم منقرع في الليالي المقمرة، ويحوم حول المقابر والمعابد، وينادي العشاق بأسمائهم، فيجلبهم إليه بقوة سحرية، فيندفعون نحوه فاقدي الإرادة ملتهبي الشعور، ويلحقون به فوق الرمال، ويغيبون في بطن الصحراء، ولا يعودون منها أبداً!

سفينة فرعون

فرعون مصر سنوسرت الثالث، حفر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، قناة تصل البحرين، مثل قناة السويس التي حفرت في القرن التاسع عشر بعد الميلاد.

الربة عشتروت – "تمثال فينيقي"

السفينة الزاهية تتهادى على صفحة الماء، تداعب الأمواج الخفيفة جوانبها، وتدفعها الرياح الشمالية برفق إلى الأمام؛ فالطقس ربيعي جميل، والسماء صافية الأديم في النهار، متلألئة بالنجوم في الليل. وعلى ظهر السفينة، أنغام وألحان وأناشيد، تتصاعد بلا انقطاع من أفواه الرجال والنساء على السواء، يتخللها أحياناً الرقص القومي أو الديني، والدعاء إلى الآلهة بأن ترعى المسافرين بعين عنايتها، وتوصلهم سالمين إلى بر الأمان!.. إنهم بضع عشرات من المصريين والفينيقيين، في طريقهم إلى وادي النيل المبارك، لتقديم هدية إلى فرعون. إنهم لا يحملون الهدية، بل الهدية هي التي تحملهم! فالسفينة التي تتهادى بهم تجاه الشاطئ، صنعتها أيدي الفنانين المهرة من بناة السفن في مدينة بيبلوس الفينيقية[1] لإهدائها إلى فرعون مصر سنوسرت الثالث، اعترافاً بأياديه البيضاء على مدينتهم.

في العام السابق، هز جبال فينيقية وسواحلها زلزال عنيف، لحقت بـ بيبلوس من جرائه أضرار كبيرة. ولما بلغ الخبر مسامع فرعون حزن لما حل بالمدينة العريقة، التي كانت تربطها ببلاده روابط الصداقة والتعاون وتبادل السلع والمنتجات، والتي كان فيها للربة إيزيس المصرية معبد وكهنة، بجانب معابد عشتروت[2] ربة فينيقية وحارسة سفنها في رحلاتها البعيدة ومغامراتها الجريئة.

---

[1] بيبلوس: اسمها اليوم "جبيل" – ميناء صغير على ساحل لبنان، ومن أقدم المدن في العالم.
[2] عشتروت: تقابل عند قدماء اليونانيين " أستارتي" أو "فينوس" ربة الجمال.

أراد سنوسرت الثالث أن يعبر لشعب بيبلوس عن شعوره نحوه في تلك المحنة القاسية، فأوفد إلى المدينة المنكوبة بعثة من أخصائه، على رأسها "تاهري" مهندس القصور الملكية، والخبير في تخطيط المدن وأعمال التعمير. وصل الوفد إلى بيبلوس في ثلاث سفن محملة بالمؤن من كل صنف، والأدوات من كل نوع، وتمثال لإيزيس، ليحل في حرم معبدها، محل التمثال الذي قيل الفرعون أن الزلزال أسقطه عن قاعدته فتحطم، وبعث ذلك الحادث التشاؤم في النفوس.

قوبلت هدايا فرعون بالشكر والدعاء الطيب، وقرر شعب بيبلوس أن يرد عليها بهدية لائقة بالعاهل العظيم، يأخذها وفد من بيبلوس إلى مصر، بعد مرور سنة على اليوم الذي ألقت فيه السفن المصرية مراسيها في الميناء. ولما انقضت السنة، كانت الهدية مهيأة جاهزة! إنها سفينة فينيقية من طراز خاص، بنيت للقيام برحلات في محاذاة الساحل، وفي الأنهار والجداول والقنوات.

صنعت كلها من خشب الأرز _ أرز لبنان الصلب المعطر _ هيكلها، وجوانبها، وصواريها، ومجاديفها، ومقاعدها، وأدوات الزينة والطهي فيها! لم تخرج من مصانع السفن في ممالك فينيقية سفينة مثلها من قبل! ولم تحمل سفينة من قبل ما حملته "سفينة فرعون" كما سماها أهل بيبلوس، من آنية فاخرة، وعطور فواحة، وعيدان ذكية، وبخور ولبان، مرسلة إلى معابد مصر وهياكلها، ومن عصافير نادرة، وصقور ونسور،

وفواكه مجففة، وجلود وفراء، وحلي وجواهر، مرسلة إلى فرعون، عربون وفاء وولاء!

كان معلم رسل سنوسرت قد عادوا إلى وطنهم الواحد بعد الآخر، وبقي بعضهم في بيبلوس مع رئيسهم تاهري، الذي تزوج فتاة من بناتها، الحسناء "تنيشام" ابنة صاحب مراكب الصيد "رحيرام" فأضاف ذلك الزواج رابطة جديدة إلى الروابط الكثيرة التي كانت قائمة بين الأسر الفينيقية والأسر المصرية.

عول تاهري على العودة إلى بلاده، مع زوجته ومن بقي من رفاقه، في السفينة الفاخرة التي أعدها سكان المدينة هدية لفرعون، واختاروا حماه رحيرام رباناً لها.

خرج الكهنة والكاهنات من معابد عشتروت في مهرجان اشتركت فيه بيبلوس بأسرها، وصعد كبيرهم إلى ظهر السفينة ليباركها جرياً على العادة المتبعة عند الفينيقيين قبل كل رحلة بحرية، وأعلن أنه ورفاقه قرروا أن تسافر عليها فتاة من عذارى الهيكل، لتكون صورة مجسمة لبركة عشتروت في مياه مصر، ولم تكن العذراء التي وقع عليها الاختيار غير الفتاة "سيكار" أخت "تنيشام" زوجة "تاهري" المصري، فتمت بذلك سعادة الأسرة التي ظل شملها ملتئماً في "سفينة فرعون"

وقبل قيام السفينة، جاء دور العرافة لتستطلع الغيب وتقرأ في صفحته ما كتب للراحلين إلى بعيد: "سوف تصلون بسلام إلى أرض مصر،

وسوف تبقى السفينة مصونة من الأذى، في مأمن من الرياح العاصفة، والمياه المالحة، والأقدار النادرة ، ما دامت سيكار مقيمة فيها، لا تغادرها إلى البر، عذراء تعف عن الزواج. تقف نفسها لربتنا عشتروت، تتوجه إليها بالصلاة، وتحرق لها البخور في أرض مصر!"

وأقلعت سفينة فرعون بمن فيها، هدية تحمل حامليها، وراحت تشق العباب، والأنغام والألحان والأناشيد تملأ أرجاءها في الليل والنهار!

وصل الوافدون من بيبلوس إلى شاطئ مصر بسلام، ودخلت سفينتهم مصب النيل من أحد فروعه، وواصلت سيرها بين الضفتين حيث كان الناس يرقبون مرورها هاتفين مرحبين، ووجهتها عاصمة فرعون العظيمة.

كان سنوسرت الثالث في أوج مجده؛ فالأسرة الثانية عشرة التي ينتمي إليها ذلك العاهل المصلح، حققت لمصر مشروعات إنشائية خلدت أسماء ملوكها على كر الدهور. ثمانية من الفراعنة، كلهم رجال حرب وبناء، في عهدهم الذي دام مائتي سنة فقط، من ٢٠٠٠ إلى ١٨٠٠ قبل الميلاد، انتظمت الإدارة، وضبطت جباية الضرائب، وازدهرت الصناعة والزراعة، واستخرجت المعادن من مناجم مصر، والحجارة الكريمة من سيناء، واتسعت التجارة في الداخل والخارج، وخضع الإقطاعيون للسلطة المركزية، وأنشئت المعابد، ورفعت مسلة عين شمس، وشيد هرم دهشور،

وشملت الملاحة نهر النيل وفروعه، والبحرين الأحمر والمتوسط، وغصت البلاد بالخيرات من كل نوعٍ، وبالسلع من كل بلد.

رأى فرعون أن النقل بطريق البر بين سواحل البحرين، يستغرق وقتاً طويلاً، وجهوداً شاقة، ونفقات باهظة، فقرر أن يصل بين البحر والبحر، بقناة تمتد من فرعِ النيل الشرقي إلى الخليج الذي ينتهى به البحر الأحمر، داخل الأرض المصرية. قرر ونفذ في الحال!

كانت الترعِ في مصر السفلى تؤلف شبكة تتداخل مجاريها بعضها في بعض، فتسهل على السفن الكبيرة والقوارب الصغيرة الانتقال من مكان إلى مكان، ومن مدينة إلى مدينة، على ضفاف النيل في طول الدلتا وعرضها؛ فأضاف سنوسرت الثالث _ ويغلب على الظن أنه فرعون الذي تحدث عنه مؤرخو اليونان باسم سيزوستريس _ قناة عميقة واسعة، وصلت النيل بخليج البحر، فتم بها الاتصال بين سواحل البحرين، وتحققت أمنية فرعون، وساعد ذلك على زيادة الرخاء، فهلل الشعب ودعا للمصلح الكبير بالعمر الطويل ودوام العز والمجد.

ولما وصلت هدية شعب بيبلوس، أمر فرعون بإعداد سلسلة من الرحلات للنزهة، على طول مجرى النيل، وفي فروعه وقنواته، وأراد قبل كل شيء أن يجتاز ضيوفه الفينيقيون، بالسفينة التي سموها باسمه، المسافة الفاصلة بين شاطئ البحر في الشمال، وشاطئ البحر في الشرق، بدون أن

يضطروا إلى النزول من سفينتهم، التي سلكت للمرة الأولى الطريق المائي المحفور وسط الرمال، والذي سماه فرعون: "قناة البحرين".

عاد رحيرام إلى بلاده، وقص على مواطنيه ما شاهده في مصر من منشآت عمرانية مدهشة، واستأنف تاهري عمله في القصور الملكية، ومعه زوجته الفينيقية تنيشام، التي ذاقت في وطنها الثاني سعادة كانت لها عزاء على هجرها وطنها الأول. وبقيت سيكار، الكاهنة العذراء، على ظهر سفينة فرعون، عملاً بإرادة الآلهة التي التقت بها العرافة في بيبلوس، والتي خضع لها سنوسرت لما أطلعه تاهري ورفاقه عليها.

أمر الملك بأن تحاط الفتاة الغريبة بالإكرام وأن تظل مصونة من الأذى، وأوصى بها الربان الذي اختاره من المقربين إليه، ليحل محل رحيرام الفينيقي، والد العذراء سيكار، وقال له: "كن لها أباً، وأخاً، وحارساً أميناً!"

توالت الأيام، وتتابعت الرحلات، ومرت الشهور والأعوام، وفرعون ساهر على سلامة مملكته، عامل لإسعاد شعبها، يختلس من وقته الثمين أياماً معدودة ليأخذ نصيبه من الراحة. كان يستخدم دائماً في تنقلاته داخل البلاد، وبين شواطئها، وفي أطرافها، تلك السفينة التي جاءته هدية من قوم عرفوا له فضله وأقروا بجميله، ولم يفطن إلى أن مأساة عاطفية تدور فصولها على ظهر السفينة وتسبب شقاء شخصين في ريعان الشباب؛ فقد توثقت الألفة بين الربان المصري الذي عهد إليه فرعون بقيادة سفينته،

والفتاة الفينيقية التي قضت إرادة الآلهة بأن تبقى عذراء، ولا تلمس الأرض بقدميها!

نشأت المحبة بعد الألفة، وتحولت المحبة إلى حب، وانقلب الحب غراماً جارفاً، ولكن الفتاة أبت أن تخون العهد الذي قطعته على نفسها، يوم رضيت بأن تصعد إلى ظهر السفينة ولا تغادرها، وألا يكون لها طول حياتها علاقة برجل، واحترم الشاب تمسك الفتاة بعهدها؛ فقاسى من حبه المكظوم عذاباً أدمى فؤاده، وانتابه أرق دائم هد كيانه وأفقد جسمه القوة اللازمة لمواصلة القيام بعمله، وأداء مهمته، وزاد في عذابه ما كان يراه من مظاهر الضعف واليأس عند الحبيبة العزيزة، فقد ذبلت نضارة وجهها، وغارت عيناها، وتمنت ذات يوم على مسمع من الحبيب الغالي، أنها أصبحت تؤثر الموت على الحياة، إذ لم يعد في وسعها أن تقاوم العاطفة الجياشة في صدرها، ولا تستطيع من ناحية أخرى أن تخون العهد وتخالف إرادة عشتروت!

عرف الشاب والفتاة كيف يكون شقاء المحبين، إذا لم يكلل الحب بالوصال! وفي يوم من أيام الربيع، تلقى الشاب من فرعون أمراً بأن يعد السفينة لرحلة جديدة، خلال القناة الكبيرة، إلى ساحل الخليج؛ فأعد الربان المعدة لتلبية أمر فرعون! ولكن خبراً محزناً كان ينتظر سنوسرت، عند مرفأ السفن في نهر النيل، في ذلك اليوم، وجدت سيكار، الفينيقية العذراء، ميتة في فراشها، وعلى فمها ابتسامة جميلة كأنها تستقبل الموت بالرضا والارتياح! وفي ذلك اليوم، عرف فرعون قصة الغرام التي جمعت بين

قلبين! فقد روى له الشاب العاشق ما حدث بينه وبين كاهنة عشتروت فأدرك فرعون أن الفتاة ماتت من الحزن والأسى؛ فنفرت دمعة من عينه! ثم خاطب رجال حاشيته، وبحارة السفينة، قائلاً:

– علينا أن نحترم إرادة الآلهة كما احترمتها هذه العذراء المسكينة، ليس في وسعنا أن ننقلها إلى البر لدفنها في أرض مصر التي أحبتها؛ فالسفينة في هذه الحالة قد تتعرض للهلاك، تحقيقاً لتكهن العرافة، التي قالت أن السفينة ستبقى مصونة من الأذى، مادامت سيكار مقيمة فيها!

تطلع السامعون بعضهم إلى بعض، متسائلين ماذا يريد فرعون أن يصنع؟ واستطرد سنوسرت قائلاً:

– لن تمخر بنا هذه السفينة بعد اليوم عباب النهر أو البحر، امضوا بها في القناة الكبيرة إلى عرض الخليج، وهناك، افتحوا ثغرة في جنبها، واهجروها، ودعوها تغرق وبها العذراء الفينيقية في كفنها! فهي خير ضريح لها!

أغرقت "سفينة فرعون" في مياه الخليج، وبقيت فيها جثتان! فقد حمل رجالها الخبر إلى سنوسرت الثالث في قصره فتضاعف حزنه، ونفرت في هذه المرة من عينيه دمعتان!

لما فتح البحار ثغرة في جنب السفينة، وتنادوا للنزول منها، وتركها تغرق تنفيذاً لأمر فرعون، رفض الربان العاشق أن يلحق بهم، وأبى إلا أن يظل ملازماً لجثمان حبيبته، فيرحل معها إلى العالم الآخر! وغارت سفينة فرعون في اليم، تضم في أحضانها العاشقة الميتة، والعاشق الحي!

رسول فرعون

في عهد تحتمس الأول، بدأ المصريين يعنون بتربية الخيول العربية الأصيلة، وإنشاء كتائب الفرسان في الجيش...!

وجاءوا لفرعون بأبرع الراقصات

أحاط رجال الدولة بفرعون الكئيب الحزين، وحاولوا عبثاً تهدئة خاطره وإدخال السرور على نفسه، وجاءوا بأبرع الراقصات وأجمل النساء وأمهر العازفين على آلات الطرب، وأشهر المغنين في "طيبة" وأقاموا في العاصمة المصرية الأفراح والليالي الملاح. ولكن ذلك لم يخفف من حزن فرعون وكآبته، ولم يجد منفذاً إلى صدره المنقبض.

– كرتميس!.. كرتميس!

تلك هي الكلمة التي كانت ترددها شفتاه في صحوه ومنامه، في روحاته وغدواته، في داخل قصره بطيبة أو في الحدائق الغناء على ضفاف النيل المبارك.

– كرتميس!.. كرتميس!

أحرزت الجيوش المصرية انتصارات باهرة في الميادين، ولكن تلك الانتصارات لم تكن كافية لمحو ذلك الاسم من ذهن فرعون. وامتدت حدود مصر إلى مسافات شاسعة شرقاً وغرباً وجنوباً. وخضعت لها الممالك الأسيوية والإفريقية، ولكن تلك الفتوح لم تكن كافية لتعزية فرعون عن فقد من يحب.

– كرتميس!.. كرتميس!

طبع ذلك الاسم ـ بل نقش نقشاً ـ في قلب العاهل الفاتح، ولكن فرعون العظيم القدير، الذي استطاع أن يحتفظ بملكه المترامي الأطراف،

ويبسط سلطانه على أرباب التيجان في العالم المعروف في ذلك الوقت، عجز عن الاحتفاظ بامرأة أحبها وأخضع قلبه لمشيئتها، فقد هربت المحبوبة المعبودة من القصر في ليلة مظلمة، وآثرت العودة إلى أهلها في البلاد التي "ما بين النهرين"[٣] حيث تشرق الشمس وتهب الرياح العاصفة، على البقاء في ديار الغربة وفي قصر فرعون!

وطار قلب تحتمس الأول شعاعاً، وجن جنونه، وتولاه القلق واليأس، وحل الاضطراب في حياته محل الراحة والهناء، وراح يبحث عن المحبوبة الهاربة، ويردد في كل آن ومكان اسمها العذب:

- كرتميس!.. كرتميس!

أعاد "أحمس" إلى مصر استقلالها وإلى الأسرة المصرية المالكة تاجها، بعد أن تم له النصر وطرد "الهكسوس" الرعاة من وادي النيل ومات ذلك الملك المنصور تاركاً لخلفائه دولة قوية منيعة الجانب.

وجلس على عرش مصر بعده أمنوفيس الأول، فسار في الطريق الذي خطه سلفه، وعزز الملك بفتوح جديدة ومشروعات عمرانية جليلة، ومات في سنة ١٥٤٠ قبل الميلاد فبكته الرعية، وأقسم "خلفه تحتمس الأول" أن يتم ما بدأ به ذلك الملك العادل الصالح.

---

[٣] هي اليوم العراق

وتولى تحتمس الملك من سنة ١٥٤٠ إلى سنة ١٥١٥ قبل الميلاد فبلغت مصر في عهده أوج العلا، وحرقت البخور في الهياكل تكريماً له، ورفعته إلى مصاف الآلهة فعبدت "ابن توت" وأجلسته على عرش القلوب بعد أن أجلسته على عرش الملك. وحدث في أثناء غزوة قام بها الجيش المصري الظافر في أقاصي الشرق، على ضفاف الفرات، أن ساق الغزاة الفاتحون أمامهم طائفة من الأسرى والعبيد والسبايا، حاملين أبدع ما حوته تلك البلاد من نفائس.

وجاء قواد الجيش إلى فرعون بفتاة تحاكي البدر بهاء ونوراً، وعود الخيزران تثنياً وامتشاقاً، والظبي دلالاً ونفوراً، وهي ابنة أمير من أمراء البادية، نازل المصريين في الميادين، وحاربهم محاربة الأبطال وابنته إلى جانبه، تشد أزره وتضرم في صدره نار الحماسة، وتحرضه على القتال، إلى أن سقط الأب صريعاً في حومة الوغى، ووقعت الابنة أسيرة في أيدي الغالبين المتنصرين!

وقال قائدهم:

– ستكون هذه الغانية هديتنا إلى فرعون!

وتقبل تحتمس الهدية، وحلت الفتاة في قصر الملك، وأقامت بين النساء معززة مكرمة، وما لبث فرعون أن جعلها رئيسة عليهن جميعاً، تأمر فتخضع لأوامرها الراقصات والخادمات والإماء وحاملات العطور والرياحين.

ولكن "كرتميس" لم تكن سعيدة ولم تكن راضية بتلك الحياة الجديدة، وعندما أرسل تحتمس في طلبها، وكاشفها بحبه، وأفضى إليها بما أثارته في نفسه من غرام، لم يعد قادراً على كبح جماحه، ألقت الفتاة بنفسها على قدميه، وقالت والدموع تنهمر من عينيها النجلاوين:

– إذا كنت أيها المولى القدير تحبني حقيقة، وتكن لي في صدرك ما تبوح به الآن من شعور قوي، فاثبت لي ذلك بالبرهان الساطع والدليل المحسوس، وأعد إلي حريتي، وأطلق سراحي، ودعني أذهب إلى حيث نشأت وترعرعت في جوف الصحراء المحرقة، وسط الرمال التي لا نهاية لها، حيث لقي آبائي وأجدادي حتفهم في الحروب، وحيث أريد أن أقضي حياتي وأموت!

لكن فرعون لم يجبها إلى طلبها، وجعل يمنيها بطيب الآمال وحلو الأماني، قائلاً: أنها ستعيش في القصر محوطة بالإجلال والمحبة والإكرام، لا فرق بينها وبين الملكة المتوجة، وأن بقاءها في طيبة يضمن لها ولفرعون السعادة والهناء في مستقبل الأيام!

وحاولت كرتميس فيما بعد غير مرة أن تحمل فرعون على إخلاء سبيلها وإعادتها إلى بلادها وعشيرتها، ولكنها كانت في كل مرة تلاقي منه إعراضاً ورفضاً، فعولت على الهرب من القصر، وحققت بغيتها بمساعدة من تمكنت من إغرائه بالمال من الحراس. وتفقدها تحتمس ذات يوم فلم يجدها، وانقلب فرعون منذ ذلك الوقت من حال إلى حال، وساورته

الهواجس والهموم، وراح يردد اسم الحسناء الشاردة: كرتميس! كرتميس! كرتميس

ثم أحضر القائد لديه وقال:

– أريد أن تجتاح البلاد، وتخضع سكانها، وتفرض عليهم الجزية وتسوق الأشداء منهم إلى الأسر، وتنزل العقاب الصارم بكل من يخيل إليك أن له علماً بمقر كرتميس، ويتذرع بالنكران.. أسامع أنت؟

فزع القائد أمام فرعون وأجاب:

– سامع يا مولاي!

– اذهب! وليزحف الجيش منذ الليلة إلى الشرق!

وفي المساء، غادرت الجحافل المصرية ضواحي طيبة حيث ظلت تحتشد بضعة أسابيع. سار جيش إلى الشمال فالشرق لغزو بلاد الأشوريين والبابليين والفرس، وسار جيش إلى الجنوب لغزو بلاد كوش المسماة الآن "إثيوبيا" أو "الحبشة". وأمر فرعون بأن تنصب على شرفة قصره العليا خيمة أرجوانية، ويوضع فيها سرير الملك، لكي يشرف على الطرق المتشعبة من طيبة إلى أطراف المملكة، وأقسم أن يظل مقيماً في تلك الخيمة إلى أن يحمل إليه الرسل خبراً ساراً عن كرتميس!

وأوفد مع الجيش الزاحف شمالاً وشرقاً مائة رسول من عبيد القصر المشهورين بسرعة الجري وقطع المسافات البعيدة بلا عناء، وعهد إلى قيادة الجيش في أن تعيد إلى طيبة رسولاً واحداً كل يومين أو ثلاثة، حاملاً إلى القصر آخر الأخبار. ودار القمر دورته مرة بعد مرة، ولم يحمل الرسل إلى فرعون غير أنباء الانتصارات المتوالية التي أحرزها جيشه في ميادين القتال، ولم يكن هذا ما يتوق إليه تحتمس، بل كان يرغب قبل كل شيء في معرفة ما تم من أمر كرتميس، وهل تمكن قواد جيشه من العثور عليها وهل هي عائدة إلى القصر أو لا؟

وفد الرسل الواحد بعد الآخر، وكان فرعون كلما جيء إليه برسول قادم من الشرق يبادره سائلاً:

- ما وراءك من أخبار؟

فيجيب الرسول:

- انتصر جيشك يا فرعون!

ولكن تحتمس كان يقاطعه قائلاً:

- أليس وراءك غير أخبار الحرب والقتال؟

- نعم يا مولاي!

– اذهب إذن!

وبعد أن وفد على طيبة ثلاثون رسولاً لا يحملون غير أنباء الانتصارات، صاح فرعون في غيظ وحنق:

– ليس هذا ما أود معرفته! ليس هذا ما أتوق إليه! كرتميس! كرتميس! أريد أن أعلم ماذا حل بكرتميس. ولن ينزل الرسول بعد اليوم حياً من هذا المكان إن كان لا يحمل إلي أخباراً عن كرتميس!

فارتجف رجال القصر من الخوف، وأسرع الكهنة إلى الآلهة يتوسلون ويضرعون إليها بأن تحقق رغبة فرعون وتنقذ حياة الرسل المساكين! وبعد عشرة أيام وفد رسول جديد، ومثل بين يدي تحتمس الأول، فوجده وحيداً في خيمته، وقد وضع أمام وسادته سيفاً مسلولاً. وصاح فرعون:

– أمعك خبر عن كرتميس؟

– كلا يا مولاي!

– خذ إذن!

ومزق السيف صدر المسكين وأسكت دقات قلبه، فخر على الأرض جثة هامدة! واستلقى فرعون على سريره وهو يرتجف من الغضب.. وشاءت الأقدار أن يفد على القصر في ذلك اليوم أربعة من الرسل قتلهم

فرعون الواحد بعد الآخر لأنهم لم يحملوا إليه الخبر السار الذي كان ينتظره.

وانقضت عشرون يوماً لم يفد فيها على طيبة رسول آخر من الجيوش المحاربة، وقلق فرعون واضطرب، وخشي أن تكون هناك كارثة قد حلت بجنوده، فهجر الرقاد جفونه، وواصل الليل بالنهار على الشرفة، وعيناه شاخصتان إلى الطريق، رافضاً ما كان يحمله إليه العبيد من طعام وتأتيه به الإماء من شراب وعطور.. وفجأة، في منتصف الليل، استيقظ تحتمس على ضوضاء منبعثة من سلم الشرفة وسمع صوتاً قوياً يصيح قائلاً:

– لن يقف حارس في وجهي، فلا بد من الوصول إلى فرعون لأنني أحمل أخباراً يجب أن تبلغه في الحال!

وصاح تحتمس من ناحيته: إلي بالرجل! واندفع إلى الشرفة شاب في العقد الثالث من العمر، قوي البنية مفتول الساعدين أسود البشرة، وانطرح على الأرض أمام فرعون قائلاً:

– إني أعلم يا مولاي ما ينتظره الرسول الذي لا يحمل إليك خبراً عن الفتاة كرتميس! وإني أحمل إليك ذلك الخبر، غير أنه خبر ليس فيه ما يسر!

– أفصح... أفصح..

– إن كرتميس يا فرعون قد انتقلت إلى عالم غير هذا العالم.

– ماتت؟

– ماتت منتحرة بعد أن انتزعناها من ديار أهلها ومن بين عشيرتها..

– كيف حدث ذلك؟

– خرج إلينا القوم من بطن الصحراء وكانت كرتميس نفسها تقودهم وتحثهم على القتال. ولكننا صمدنا لهم، ودفعنا هجومهم، ثم تغلبنا عليهم شيئاً فشيئاً حتى هزمناهم هزيمة منكرة، وفتكنا بهم فتكاً ذريعاً. وما أن انتهى ذلك اليوم المشهود حتى كانت أشلاؤهم تملأ السهل، ومواشيهم شاردة فيه. وقد وقع في الأسر كثيرون منهم بينهم كرتميس، التي جرحت في المعركة.

– وبعد؟

– أقمنا حولها الحراس وضمدنا جرحها وأحطناها بكل عناية، ولكنها يا مولاي اغتنمت فرصة الظلام الحالك وخنقت نفسها بشعرها الطويل المسترسل على كتفيها!

– ويحكم! أما فكرتم في حراستها ليلاً كما فكرتم في حراستها نهاراً؟

– لم يعتقد أحد منا يا مولاي أنها ستقدم على ذلك العمل الجنوني!

– إنك تستحق الموت كسواك من الرسل الذين سبقوك، ولكني سأبقي عليك وأحتفظ بك إلى ما بعد عودة الجيش..

– لدي خبر آخر يا فرعون!

– تكلم...

– إن الجيش العائد من الصحراء الشرقية، يسوق أمامه أسراباً من "الخيول" العربية...

– آه .. الخيول .. التي يستخدمها أعداؤنا في السفر والحرب، فيمتطونها ويروضونها ويدربونها على الجري والقتال. لقد أحسنتم صنعاً. وهذا الخبر يحملني على العفو عنك. اذهب فأنت حر طليق!

خرج الرسول، ونظر فرعون حوله، وعندما أيقن أنه وحيد على شرفة القصر، وأن لا أحد يراه، أمسك رأسه بيديه، وتفجرت الدموع من عينيه، وبكى بكاء مراً، على حين كانت شفتاه ترددان الاسم المحبوب:

– كرتميس! .. كرتميس!

رجع الجيش الفاتح من أرض بابل وآشور وفارس، يسوق أمامه آلافاً من الأسرى والسبايا، وقطعاناً من الخيول المطهمة والأفراس الأصيلة، وأثقالاً لا يحصى لها عدد ووزن من أسلاب المعارك وتحف القصور، وأصغى تحتمس بإمعان إلى ما قصه قواد جيشه من أمر كرتميس، وكيف آثرت الانتحار على العودة إلى الأسر، وقال بعد أن اطلع على نتيجة تلك الحملة الموفقة التي قام بها جيشه الباسل على الدول المجاورة:

– لقد أحرزتم في المعارك نصراً أنساني ما عداه من أمور، وأحرز الجيش في الجنوب نصراً آخر يبسط سلطان فرعون على بلاد كوش، وفرعون فخور بجنده وقواده، وقد عجزتم عن إعادة امرأة هاربة إلى القصر

الذي هربت منه. ولكنكم أتيتم بعامل جديد من عوامل النصر في الأيام المقبلة. أتيتم بالحيوان الذي يعد خير صديق للرجل بين ذوات القوائم الأربع. فإن الهكسوس قد جاءوا ببعض الخيول من الشرق، ولكنهم لم يعتنوا بتربيتها في وادي النيل، أما الآن فإننا سننشئ لها المرابط ونهيئ لها المراعي الخصبة، ونخصص لها من أبناء مصر من يتولى تربيتها وتحسين نسلها. وسوف يستخدم ملوك مصر في المستقبل تلك الخيول والأفراس لعظمة مصر وبسط سلطان فرعون على الشعوب الأخرى.

وبعث تحتمس في طلب الرسول الذي حمل إليه خبر موت كرتميس وجلب الخيول إلى مصر، فأنعم عليه وكافأه، واختاره رسولاً خاصاً له، وعرف الرجل منذ ذلك الوقت باسم "رسول فرعون"، ونسي تحتمس الفتاة كرتميس، كأن ذكرها قد ذاب على حرارة الدموع التي تساقطت من عينيه في تلك الليلة! وانصرف المصريون منذ ذلك الوقت إلى العناية بتربية الخيول، وما مرت سنوات معدودة حتى كان عددها قد تضاعف في وادي النيل، وأنشأ فرعون في جيشه فرقاً من الفرسان الذين عاد إليهم الفضل في فتح الأقطار وإخضاع الأمصار...

الجميلة أتت

رقصت الصبية الرشيقة أمام فرعون؛ فقرر أن يتزوجها..

راقصة من بنات الأشراف في قصر فرعون

بدا قصر فرعون في ذلك اليوم البهيج في حلة من الزينة تبهر الأبصار، وتأخذ بالألباب، وخرج الشعب إلى الشوارع والميادين، وأحاط بالقصر الملكي ينظر إلى الحراس الكثيرين، وقد تفرقوا على الأبواب، ويصغي من بعيد إلى الألحان العذبة والأنغام الشجية المتصاعدة من وراء الجدران العالية، وينشر الأزهار ويلوح بالرياحين كلما اخترق صفوفه كاهن من الكهنة، أو عظيم من العظماء، أو قائد من القواد، في طريقه إلى المقر الملكي، حيث أقام فرعون حفلة سمر وطرب، دعا إليها رجال مملكته الأمناء، وأصحاب الرأي النافذ فيها.

وتربع أمنحوتب الرابع في سريره الذهبي المرصع بالحجارة الكريمة، وأحاط به المدعوون إحاطة السوار بالمعصم، على حين أن المغنين يطربون الملك بأناشيدهم الجميلة، طالبين من آمون أن يطيل ملكه ويزيده مجداً على مجد وجاهاً على جاه.

وجلست بجانب الملك أمه النبيلة الذكية المسموعة الكلمة، الملكة "تي" زوجة أمنحوتب الثالث العظيم، القوي الشجاع، الذي لم يطلق في حياته من القوس سهماً طائشاً، والذي روع الجيوش في الميادين والسباع في الغابات، فدون اسمه في التاريخ كأمهر صياد عرفه الناس، وقتل في الصحاري والأدغال والهضاب مائة واثني عشر أسداً في عشر سنوات، فضلاً عن الذئاب والفهود والثعالب والصقور! وكان ابنه أمنحوتب الرابع يعلل النفس بالسير على منهاج أبيه في تدويخ الممالك وإخضاع الشعوب،

ولكن بطريقة غير التي عمد إليها أبوه، وبسلاح غير الذي كان فرعون العظيم يشهره في وجه أعدائه.

كان أمنحوتب الثالث يخضع أعداءه بنصال السيوف وأسنة الرماح وسهام الأقواس، أما أمنحوتب الرابع، فقد فكر في إخضاعها بدين جديد وعقائد مبتكرة تقوم على أنقاض الدين القديم والعقائد البالية، وهو الذي فرض سلطة الكهنة فيما بعد وهجر معابد آمون، وأقام لأتون معابد جديدة، فحمل منذ ذلك الوقت اسم إخناتون بدلاً من أمنحوتب.

أما تلك الحفلة التي كان يحييها، والتي دعا إليها الرجال البارزين في مملكته، فقد أعدها لاستقبال رسول دشراته، أحد ملوك سورية. أرادت الملكة تي (أم الملك أمنحوتب) أن يتخذ ابنها زوجة له من بنات الملوك التابعين له الخاضعين لتاجه، وكانت ترمي بذلك إلى ضمان خضوع تلك الشعوب البعيدة، التي كانت كلما سنحت لها الفرصة تشق عصا الطاعة على فرعون وتمسك عن دفع الجزية.

وكان للملك دشراته ابنة فاتنة الحسن ذاع صيتها في الأقطار شرقاً وغرباً، فأرادت الملكة أن يتزوج ابنها تلك الفتاة الجميلة، وبعثت إلى الملك دشراته تنبئه بذلك، فأجابها إلى طلبها، وأوفد رسوله إلى فرعون يحمل إليه الهدايا ويقطع له عهداً باسم سيده دشراته بأن تكون ابنته "تادوو" زوجة لأمنحوتب وملكة على مصر.

أفضى الرسول إلى فرعون بمضمون رسالته، ووضع بين يديه الهدايا التي عهد إليه سيده في حملها إلى مصر، فتقبلها أمنحوتب مبتسماً شاكراً، وأمر حجابه بأن ينزلوا الرسول وصحبه ضيوفاً مكرمين في قصره، ودعا الرجل إلى اخذ مكانه بين الحاضرين، وأشار إلى رئيس التشريفات بإدخال الراقصات، فدخلن، وكن عشراً تليهن عشرات فعشرات، وجعلن يعرضن على الملك وحاشيته وضيوفه آخر ما وصل إليه فن الرقص في ذلك الوقت من سحر وإبداع. ثم خرجن الواحدة بعد الأخرى، وبقيت منهن راقصة أرادت أن ترقص أمام الملك بمفردها، بعد أن كانت تشرف على زميلاتها، وتدير حركاتهن، وتقضي بدخولهن وانصرافهن من حضرة فرعون.

وبينما أنظار جميع من حضروا ذلك المجلس متجهة إلى تلك الراقصة البارعة الجميلة، وقد أخذوا بحسنها وخفتها ومهارتها، أشار فرعون إلى أحد حجابه الأمناء، فاقترب الحاجب من العرش، وهمس أمنحوتب في أذنه:

- جئني بهذه الراقصة بعد انصراف المدعوين!

مثلت الراقصة بين يدي فرعون، خائفة مرتعدة، ظناً منها أن الملك غاضب عليها وأن رقصها ورقص زميلاتها لم ينل حظوة في عينيه، ولكن الملك كان يبتسم، وجعل يخاطبها بلهجة أعادت الطمأنينة إلى نفسها المضطربة، فأدركت أن مخاوفها لم تكن في محلها، وأن فرعون العظيم لم يبعث في طلبها إلا لأنه يريد بها خيراً. وسألها ببشاشة ولطف:

- لم أرك قبل الآن بين الراقصات في القصر. هل قضيت زمناً طويلاً هنا؟

- قضيت بضعة أشهر يا مولاي

- أتحبين الرقص؟

- أحبه إلى حد الجنون. وقد رغبت فيه ومارسته بالرغم من أن البيئة التي أنتمي إليها لا يسمح فيها للبنات بمزاولة هذا الفن الجميل.

- أنت إذن من الأشراف؟

- نعم يا مولاي

- ما اسمك؟

- نفرتيتي

- نفرتيتي! اسم جميل يرن في الأذن رنة طرب، كأنه نغم قيثارة تضرب أوتارها أنامل الحسان.

سكنت الفتاة ولم تنبس، وحاولت أن تحول نظرها عن نظر فرعون، لكن أمنحوتب نهض من مكانه، وأخذ رأسها بين يديه، وحدق إليها البصر، وقال بلهجة حارة:

- نفرتيتي، ستتوجين ملكة على مصر!

فأكبت الفتاة تقبل يدي فرعون العظيم وهي تضحك وتبكي في وقت واحد، وقد أوشكت تلك الكلمات التي تساقطت من فم الملك أن تفقدها الرشد والإدراك، وجعل أمنحوتب يداعب جدائل شعرها الناعم بين أنامله، ويقول مردداً:

- ستتوجين ملكة على مصر، فاذهبي، وتطيبي، وانتظرى ما يحمله إليك الغد من مسرات وسعادة ومجد وهناء! ستتوجين ملكة على مصر! ستتوجين ملكة على مصر!

هي ابنة "عاي" الحسيب النسيب، من كبار النبلاء في حاشية فرعون، والحائز على رضاه، وصاحب الشهرة الواسعة بين رجال الجيش، ولم يسمح عاي لابنته نفرتيتي بأن تمارس الرقص إلا على شرط أن يكون ذلك في قصر فرعون وبصحبة رفيقات لها من بنات النبلاء والأشراف.

وبرعت نفرتيتي في الفن الذي عشقته إلى حد بعيد، فبايعتها زميلاتها بالزعامة، وتولت الإشراف على حلقات الرقص، بموافقة الملكة تي وتحت رعايتها، ولكن الملكة لم تكن لتتصور، في أية حال أن يقع ابنها الشاب في غرام الفتاة ابنة النبيل المصري، وهو يراها ترقص أمامه، ون ذلك الغرام المفاجئ سوف يفسد عليها مشروع الزواج الذي أعدته لأمنحوتب، وهو أن تستقدم له زوجته الأولى من بلد آسيوي. وقد وقع اختيارها على الحسناء "تادوو" ابنة دشراته الملك السوري.

حاولت الملكة تي أن تثني وحيدها عن عزمه، وأن تحمله على احترام العهد الذي قطعته باسمه للملك دشراته، وأن تقنعه بأن زواجه من فتاة أخرى غير تادوو، قد يجر عليه مصاعب ومشكلات هو في غنى عنها، وأن رئيس الكهنة لن يرضى بذلك الزواج، وأن المستقبل سيكون مثقلاً بالحوادث الجسام إذا ظل الملك الشاب على رأيه. لكن أمنحوتب أبى إلا أن ينفذ ما عزم عليه، وكان يجيب على نصائح أمه بهذه الكلمات يرددها بلا انقطاع، وقد أخذ بجمال الصبية الراقصة:

– ستتوج نفرتيتي ملكة على مصر!

لم يمض شهر واحد على ذلك اليوم الذي وقع في نظر الملك على نفرتيتي للمرة الأولى، حتى وصل إلى طيبة موكب فخم، يتقدمه الجنود حاملين الرماح والأقواس، ويحيط به من كل جانب العبيد والخدم حاملين الهدايا والعطور، ويتوسطه هودج من الذهب الخالص، قائم على مركبة تجرها الجياد، وقد تربعت فيه على وسائد حمراء مزخرفة بالخيوط الذهبية، فتاة تحاكي البدر بهاءً.. ذلك هو الموكب الذي سيره الملك دشراته إلى طيبة، وتلك هي ابنة الملك تادوو التي أعدها أبوها زوجة لفرعون، والتي أعرض عنها أمنحوتب وفضل عليها الراقصة ابنة النبيل عاي.

أمر فرعون بأن يكون استقبال ابنة الملك السوري بالغاً منتهى الحفاوة وأن تحل ومن معها في القصر الملكي في جناح خاص، ولكنه أبى أن يراها وأن ينفذ ما جاءت الفتاة لأجله من عند أبيها. مر أسبوع وتلاه

أسبوع آخر ومرت أسابيع فشهور، والملك باق على عزمه، مصر على ما أبداه لأمه، دون أن يؤثر فيه إلحاح الكهنة أو ينال منه تهديدهم.

واضطرت الملكة تي أن تعيد الفتاة إلى أبيها الملك دشراته، مع رسول يقول أن فرعون مريض وأن مرضه يحول دون زواجه! وفي الوقت الذي كان الرسول يفضي برسالته إلى الملك دشراته، محاولاً إقناعه بأن أمنحوتب لن يقدم على زواج ولن يتخذ له امرأة، كان القصر الملكي في طيبة يشهد حفلة زفاف بسيطة لا تتفق مع عظمة التاج.

وفي تلك الساعة التي كانت فيها الأميرة تادوو تنتحب بين يدي أبيها، وتشكو إليه ما حل بها في مصر من خيبة أمل، وما آل إليه حظها، كانت نفرتيتي _ ومعنى هذا الاسم "الجميلة أتت" _ تضع على رأسها تاج الملك الذي وعدها به فرعون الشاب!

مات أمنحوتب بعد أن أحدث في مصر ذلك الانقلاب الديني الهائل، واتخذ لنفسه اسم إخناتون، ورزق من زوجته نفرتيتي سبع بنات تزوجت الثانية منهن شاباً من أشراف القصر يدعى توتو، وهو الذي عرف فيما بعد باسم توت عنخ آمون، وتبوأ عرش مصر بعد إخناتون!

رؤيا إخناتون

أي أم لا توافق ابنها على رأيه، إذا أدركت أن موافقتها تضمن له السعادة؟

إخناتون أو أمنحوتب الرابع – "للفنان فايدنباخ"

أخذ أمنحوتب الرابع أمه الملكة "تى" من يدها، وقادها بلطف إلى مقعد وثير، فأجلسها عليه، ووقف بجانبها وجعل يخاطبها بلهجة ملؤها العطف المقرون بالإجلال، فقال:

– أماه، لقد قضي الأمر الآن، وأصبحت نفرتيتي زوجة لي، وهي في هذه الساعة بين أيدي الوصيفات، يطلعنها على ما ظهر وخفي من شئون الحريم في القصر، ويعددنها لما أردته لها من سعادة وهناء وعظمة ورفعة شأن، ويحز في نفسي، يا أماه، أن تكوني غير راضية عني وعنها، وألا يجد هذا الزواج قبولا لديك، فاسمحي لي أن أطلعك على العوامل التي دفعتني إليه دفعاً، لكي تكوني على بينة من أمري؛ ولكي تعلمي أنني؛ فيما فعلت، قد أصغيت إلى وحيين: وحى الآلهة، ووحي القلب!

فطبعت الملكة الوالدة على جبين ابنها الحبيب قبلة أفرغت فيها كل حنانها، وقالت بصوت هادئ تتخلله رعشة الانفعال الشديد:

– أعلم يا بني أنك قد أحببت هذه الفتاة الجميلة الساحرة، وأن نداء الحب قد أصم أذنيك عن سماع كل نداء سواه. ولكن يؤلمني أن يقع اختيارك على فتاة لا يجري في عروقها دم ملكي فترفعها إلى أوجك، وتضع على رأسها تاج الفراعنة، في حين أن ملوك المشرق يتسابقون في عرض بناتهم عليك، ويلقون بهن بين أحضانك وتحت قدميك! وها هي ذي الأميرة تادوو..

فقاطع فرعون أمه قائلاً:

– لقد أسأت إلى تادوو، وسأوفد في الحال إلى أبيها الملك دشراته الرسل والهدايا، وأبعث إليه خطاباً أبثه فيه ما تولاني من أسف وأسى، لاضطراري إلى إعادة ابنته إليه، بعد وصولها إلى مصر قادمة من سورية!

– إنها لإهانة كبيرة يا ولدي، تلك التي ألحقتها بذلك الملك الصديق الحليف! فقد طلبنا منه ابنته تادوو زوجة لك، فأجابنا إلى طلبنا، وأرسل إلينا الفتاة في موكب رائع، وفي أثناء الأعياد التي أقمناها في طيبة توطئة لزواجك، واستعداداً له، رأيناك تعرض عن الأميرة السورية، وتقرر إعادتها إلى أبيها، واتخاذ الفتاة نفرتيتي زوجة لك. ألا تخشى، وهذا ما فعلت، أن ينتفض عليك ذلك الملك القوي، ويحمل ملوك الأقاليم السورية الآخرين على الانتفاض أيضاً؟

– إذا كان الملك دشراته يفقه معنى الحب، ويدرك مدى سلطانه على القلوب، ويقدر الإلهام الذي يهبط أحياناً على الناس من وراء الحجب والذي تتخذه الآلهة وسيلة لمخاطبتنا من العوالم الأخرى، فإنه لن يغضب، ولن ينتفض!

حدقت الملكة النظر في فرعون، وبدت على وجهها أمارات الدهشة وقالت:

– وأي علاقة للآلهة والعوالم الأخرى بهذا كله؟

فانتصب أمنحوتب بقامته النحيلة وأغمض عينيه، وأخذ رأسه بين يديه، وخيل لأمه أنه انتقل بفكره وعقله وبصيرته إلى عالم غير هذا العالم، وسمعته يقول وفي صوته رنة لم تعهدها فيه من قبل:

– الرؤيا يا أماه!.. الرؤيا! لم أنبئك إلى الآن بما حدث، ولم أنذرك بما سيحدث غداً .. فاسمعي: – لقد رأيت في اليقظة _ لا في الحلم _ صفحة ملكي محفورة على جبهة الدهر بيد الإله آتون. نعم آتون، ولا أقول آمون! لقد قرأتها وأعدت قراءتها، وأدركت معناها ومغزاها وما كتب لي فيها من راحة وعناء، ونجاح وفشل، وتأييد واستنكار!. لم يقدر لي في تلك الصفحة أن أتزوج ابنة ملك، بل فتاة من بنات الشعب، وقد تزوجتها. ولم يقدر لي أن أظل تحت رحمة الكهنة الذين يستغلون إيمان الشعب فيستبدون به وبفرعون أيضاً. بحجة أنهم ينفذون إرادة آمون. وإني لمقدم، اليوم أو غداً أو بعد غد، على عمل سوف يهز المملكة هزاً، ويفتح أعين الشعب للنور الحقيقي والهداية التي أريدها له، ويجعل من مصر الخصبة ونيلها المبارك تربة ينبت فيها الدين الجديد الذي عزمت على الدعوة إليه، وتزدهر في أرجائها عبادة آتون، وسأتخذ لنفسي اسماً آخر غير الذي أحمله الآن: لن أدعى "أمنحوتب" بعد اليوم، بل "إخناتون"، وسأطهر النفوس من فسادها، والعقول من ضلالها، والأجسام من سقامها!

سكت فرعون، والعرق يتصبب من جبينه، ثم فتح عينيه وأرسل إلى أمه نظرة وادعة، وأضاف قائلاً بلهجة المتوسل الراجي:

– أماه!.. هذا ما أريد أن أفعله، وهذا ما أريد أن تكوني لي عوناً في القيام به، وهذا ما سأجد في نفرتيتي المحبوبة دافعاً لي في سبيل تحقيقه!

وألقى فرعون بنفسه بين ذراعي الملكة تي، فجعلت الأم تداعب رأس ابنها، وتهدهده كالطفل الرضيع، وتغمره بدموعها.. وأضاف فرعون بلهجة فيها تذكير وفيها عتاب:

– تقولين يا أماه: أن نفرتيتي من بنات الشعب.. هذا صحيح، ولكن أنت، ألست أيضاً من بنات الشعب؟

كان أمنحوتب الرابع ابن أمنحوتب الثالث، شخصية يحوطها الغموض ويكتنفها الإبهام، قيل أنه عاش أربعين سنة، وقيل ثلاثين فقط، وقد جلس على عرش مصر من سنة ١٣٧٥إلى سنة١٣٥٨ قبل الميلاد، وكان جميلاً، متأنقاً، رقيق الشعور، سريع التأثر؛ محباً لرعيته كثير العطف على الفقراء والمعوزين، صارم الرقابة على الحكام والعملاء، واسع الاطلاع، ملماً بشئون الدولة كبيرها وصغيرها، شديد الحدب على أسرته، وقد أحب زوجته نفرتيتي حباً قلما دون التاريخ القديم والحديث مثيلاً له، علق بها وهي ترقص أمامه، في حفلة أقيمت في قصره بطيبة قبيل زواجه، فاختارها رفيقة لحياته، وأحلها محل خطيبته، وأجلسها على العرش، فأنجبت له سبع بنات، أصبحت إحداهن فيما بعد زوجة لفرعون مصر توت عنخ آمون.

ولم يكن إخناتون مخطئاً عندما قال لأمه: أنه سيجد في نفرتيتي دافعاً له في سبيل تحقيق رؤياه. فلقد أخلصت له بنت الشعب إخلاصاً لم تشبه شائبة، وأقرته على ما أراد لبلاده وأمته من انقلاب ديني وإصلاح اجتماعي فكانت تسدي إليه النصائح والآراء، وتعاونه في نشاطه المتشعب الأنحاء، وتسهر معه الليالي في إعداد العدة لإحباط الخطط التي كان كهنة آمون يتفننون في إحكام وضعها وتنفيذها، للتخلص من ذلك الملك الثائر على التقاليد الموروثة والمعتقدات الراسخة في الأذهان.

أعلن إخناتون أن الشمس ليست إلها يمثل على الأرض في صورة إنسان أو حيوان، وأن الأصنام التي يسجد لها الناس في المعابد إنما هي آلهة زائفة، وأن في العلا رباً واحداً يتجلى لعباده في "قرص الشمس" آتون، فينير العالم ويبدد الظلمات، وأن إخناتون، فرعون مصر، هو ضياء ذلك القرص الوهاج!

وصدرت الأوامر بإغلاق معابد آمون، وتشتتت هيئة الكهنة، وهجر فرعون عاصمة ملكه طيبة وأنشأ لنفسه عاصمة أخرى سماها "خوت _ آتون" أي "أفق الشمس" وشيد فيها القصور للأسرة المالكة، والهياكل للمعبود الجديد، وراح يبذل العطاء بلا حساب لأرباب الفنون من نحاتين ورسامين ونقاشين لكي يتسابقوا في زخرفة العاصمة وتجميلها، بحيث تفوق سابقتها بهاء وورونقاً وجلالاً.

لم تشهد مصر في تاريخها الطويل الحافل بالحوادث الجسام، انقلاباً مثل ذلك الانقلاب الهائل، الذي لم يتناول الدين فقط، بل امتد أيضاً إلى السياسة والإدارة والمجتمع، وكانت الأسرة المالكة ملتفة حول عميدها، متضامنة معه، مؤيدة له في أقواله وأعماله، ولم تكن أمه "تي" أقل اندفاعاً وحماسة في ذلك من زوجته "نفرتيتي".

وأدخل فرعون للمرة الأولى في تقاليد الأسرة عادة لم يسبق للشعب أن ألفها من قبل، وهي خروج الملك في مواكبه الرسمية، وروحاته وغدواته الخاصة، محوطاً بزوجته وبناته. فرحب الناس بهذه الخطوة الموفقة، التي رأوا فيها ميلاً من صاحب العرش إلى التقرب من رعيته، فصاروا يحفون بفرعون وأسرته ويهتفون ويهللون!

وعمت البلاد موجة من الفرح والحبور، واعتقد الشعب أن المستقبل لن يحمل في طياته لأبناء مصر جميعاً، الكبار والصغار، والأشراف والصعاليك، غير الهناءة واليمن والرخاء، ولكن كهنة آمون ظلوا لفرعون بالمرصاد، وانصرفوا إلى الدس في الخفاء، حتى إذا ما قصفت حياة ذلك المصلح الشاب، وثوي في مرقده الأخير، خرج الدساسون من الظلام وراحوا يهدمون ما بنى، ويمحون ما ترك من أثر! و لم يدم عهد "آتون" وضياؤه "إخناتون" وأفقه "خوت _ آتون" غير اثني عشر عاماً عادت مصر بعدها إلى ما كانت عليه، وتم القضاء على الدين الجديد في عهد الرجل الذي تزوج ابنة إخناتون، واتخذ لنفسه اسم "توت عنخ آمون".

أحاط الغموض بحياة نفرتيتي بعد موت زوجها، ولم تدلنا الآثار الباقية عن أسرتها على أي عمل أقدمت عليه، بعد أن دالت دولتها، ولم تعد في القصر ربة عرش بل أما لربة العرش، وحماة لفرعون! وكان أمنحوتب الرابع أو إخناتون قد أمر بصنع التماثيل له ولأمه وزوجته وبناته، وأدت أعمال الحفر والتنقيب _ في المكان الذي كانت عاصمته قائمة فيه، والذي يعرف اليوم "بتل العمارنة" _ إلى كشف طائفة من الآثار الرائعة، كان بينها تمثالان لفرعون وزوجته، ورسوم كثيرة عن طرق العبادة، وتقديم القرابين لقرص الشمس آتون.

أما تمثال الملكة نفرتيتي، فهو آية من آيات الفن كما كانت صاحبته آية من آيات الجمال، وقد أخفى ذلك التمثال فريق من العلماء الألمانيين، الذين عثروا عليه وعلى سواه من بدائع الفن المصري القديم، ثم تمكنوا بحيلة شيطانية من نقله خلسة إلى بلادهم، حيث سلموه لحكومتهم، فعرضته في متحف برلين، وكان بين محتويات ذلك المتحف أبدع قطعة تسترعي الأنظار وتثير الشجون وتدعو إلى التفكير.

والراقصة المتوجة، التي استولت على مشاعر فرعون، وسحرت جماهير الشعب منذ أكثر من ثلاثة وثلاثين قرناً، وساهمت في أعظم انقلاب شهدته مصر، واختطفت من وطنها اختطافاً، وظلت منذ بعثها الجديد، تحير بنظراتها العقول وتخلب الألباب، تلك المملكة التي جعلت الحب يطغى على كل اعتبار ويتبوأ عرشين في آن واحد، عرش الملك وعرش القلب، تلك المرأة التي أرادها "آتون" رفيقة لصفيه وحبيبه، تحترق الآن في ديار الغربة لوعة على ماضيها، وتذوب شوقاً وحنيناً إلى مرتع صباها، ومسرح عزها، ومرقد رفاتها!

نفرتيتي، أرملة الزوجين

الملكة الجميلة الساحرة، بكت زوجاً عرفته، إخناتون، وبكت زوجاً لم تعرفه فمن هو؟

الملكة نفرتيتي زوجة إخناتون

الموكب يسير بأقصى سرعة ممكنة، تنفيذاً لأوامر الملك "سوبو الهدما" وعملاً بإشارة ابنه "سوبو الصغير" الذي يتوق للوصول في أقرب وقت إلى مصر، حيث الملكة "نفرتيتي" الحسناء، أرملة الملك "إخناتون" تنتظر على أحر من الجمر!

كل من في الموكب يعرف مكانه منه، ويحرص على أن يظل النظام سائداً، والأوامر نافذة، فلا أحد يسبق أو يتخلف، ولا أحد يشرد إلى اليمين أو إلى اليسار: ثلاثمائة رجل أو أكثر، بين فرسان ومشاة، معهم عشرون مركبة تجرها الثيران، تحمل خمسا وعشرين من عذارى بلاد الحيثيين، اختارهن الملك بنفسه، ومعهن الهدايا الثمينة النادرة، من أسلحة وحلي ومجوهرات، وقطع من النسيج الفاخر، وقوارير الأصبغة والعطور.

وقائد الموكب، المشرف على سيره، ونظامه، المسئول عن سلامته، يروح ويجيء بين الطليعة والمؤخرة، ويراقب الجناحين، ولكن بدون أن يغرب عن باله القسم الرهيب الذي قطعه على نفسه تجاه أخته، قبل أن يغادر بلاده في طريقه إلى مصر. اسمه "حاطوم" وهو ضابط من ضباط الحرس في قصر الملك سوبو الهوما، وأخته "ثايثانا" وصيفة من وصيفات الملكة، وربيبة القصر منذ نعومة أظفارها.

كل ليلة، قبل أن يغمض عينيه ويستسلم للنوم، يردد حاطوم بينه وبين نفسه الكلمات التي قالتها من قبل أخته ثايثانا ورددها هو ويده على صدره: "لن يصل الأمير سوبو الصغير إلى مصر: فإما أن يعدل عن متابعة

السير ويقفل راجعاً إلى بلاده، وإما أن يقتل في الطريق فيحول الموت دون وصوله!"

بذلك الوعد ربط حاطوم نفسه تجاه أخته، وبتلك الكلمات التي أقسم على العمل بموجبها، تعهد بخيانة المهمة التي وضعها الملك أمانة في عنقه، وهي الوصول بالموكب ومن فيه بالسلامة إلى أرض مصر. وما تألف الموكب بأمر الملك، إلا ليرافق ابنه سوبو الصغير إلى حيث تنتظره المرأة التي طلبته زوجاً لها: نفرتيتي!

تحرك الموكب في فصل الربيع، ووقع الاختيار على الليالي المقمرة من شهر الأزهار، ليكون السفر مريحاً، والجو معتدلاً، والنسيم عليلاً، في النهار أو بين غروب الشمس وشروقها، وبينما الموكب يطوي في مراحله السهل والجد، كان رجل وامرأتان مستسلمين بلا انقطاع لهواجس يتخللها الأمل والرجاء والشك واليأس!

امرأة في مصر تعد الساعات، وتتضرع إلى الرب آتون الذي تمجده، بأن يحرس الشاب القادم إليها، والتي لا تعرفه، وإن كانت عازمة على اتخاذه زوجاً لها، وامرأة في بلاد الحيثيين تعد الساعات مثلها، وتصلي إلى آلهة قومها بأن تقرب اللحظة التي يعدل فيها الشاب المسافر إلى مصر عن متابعة طريقه فيرجع إليها حياً أو ميتاً، لأنها تحبه ولا تريده زوجاً لغيرها من النساء. ورجل حائر بين أمرين، تائه بين عهدين: فإما أن يصل بالموكب إلى مصر فيخون أخته ويسبب يأسها أو موتها من الحزن، وإما أن يقتل الشاب

الذي يحرس موكبه ويقوده، فيخون الملك الذي وضع فيه ثقته، واختاره من بين جميع الضباط رائداً لابنه.

فكر حاطوم في مخرج من المأزق وذلك بأن يحاول إقناع ابن الملك بالعدول عن مواصلة السير والرجوع إلى وطنه، ولعن الضابط الساعة التي خطر فيها لملكة مصر الأرملة أن تطلب من ملك الحيثيين إيفاد ابنه الذي لا تعرفه إلى مصر، ليصبح لها زوجاً بعد زوجها الملك الراحل!

كانت نفرتيتي، في حياة إخناتون، الزوج الملك الفيلسوف المتدين، أشد حماسة منه في نشر المذهب الذي نادى به وفرضه على الكهنة فرضاً، وتحمس له الشعب واعتنقه، وهو مذهب الرب الواحد وعبادته في صورة "قرص الشمس آتون"! وهي التي اختارت له اسمه الجديد "إخناتون" أي "نعمة قرص الشمس" بدلاً من اسمه السابق "أمنحوتب الرابع" وهي التي وفرت له، بحبها المخلص العميق، وإرشادها وتفانيها وشجاعتها، القوة الهائلة التي كان لا بد له منها لمواجهة عناد الكهنة، وإحباط مؤامراتهم، وإزالة العقبات التي أقاموها في سبيله.

تولى الملك الشاب عرش الفراعنة بمصر سبعة عشر عاماً، من سنة ١٣٧٥ إلى سنة ١٣٥٨ قبل الميلاد تقريباً، وقبل موته بسنتين، تسرب الوهن إلى نفسه، وتغلب فيها اليأس على الرجاء، وأيقن أن كهنة "آمون" سوف ينتصرون عليه عاجلاً أو آجلاً، وقرر أن يهادنهم، ولو كان في ذلك رجوع عن دين التوحيد الذي نادى به، وعوده إلى المذهب القديم وطقوس

العبادة السابقة. وللمرة الأولى دب الخلاف بين الزوج وزوجته، بين الملك والملكة، بين إخناتون ونفرتيتي.

أبت الملكة الحسناء أن تكفر بعقيدتها، واشتد الصراع الرهيب بينها وبين الكهنة، ووقف الملك موقف المتردد الحائر، فحبه لزوجته لا يزال قوياً، ولكن صحته المتداعية تجعله غير قادر على الصمود والمقاومة في وجه التيار الذي اصطنعه الكهنة وأنصارهم، ممن كانوا يجنون الفوائد والمغانم من المتاجرة بالدين واستغلاله لمصالحهم.

ولما مات الملك وهو في مطلع العقد الثالث من عمره، وجدت نفرتيتي نفسها وحيدة أمام ذلك التيار الجارف، وليس معها غير بناتها السبع، من الفقيد الغالي، ومع ذلك فقد ظلت ماضية في طريقها، على أمل أن تعيد إلى دين التوحيد ومذهب آتون مقامهما ومكانتهما، في الأيام المقبلة. ولكنها أدركت أنها أضعف من أن تبلغ هذا الهدف، وقد أصبحت أرملة، لا سلطة شرعية لها، ولا جيش عندها تستعين به لفرض إرادتها. ففكرت في اتخاذ زوج يحل محل الزوج الراحل، وهداها التفكير إلى التوجه بهذه الرغبة إلى الأسرة المالكة في بلاد الحيثيين، وهي مرتبطة بروابط القرابة والرحم مع الأسرة المالكة في مصر، فنساء الأسرتين كن زوجات الملوك وأمراء وقواد في الدولتين الجارتين، فضلاً عن المحالفة الهجومية والدفاعية التي كانت قائمة بينهما في ذلك الوقت.

أوفدت نفرتيتي إذن رسلها إلى سوبو ألهوما ملك الحيثيين، وطلبت منه أن يزوجها ثالث أبنائه سوبو الصغير، وهو يحمل اسم أبيه، وتعرف عنه الملكة الشابة أنه جميل شجاع مقدام، وإن كانت لم تره في حياتها ولم تقع عليه عيناها، ولكنها شعرت بأنه الرجل الذي يمكن أن تتخذه سنداً لها في المحنة النفسية القاسية التي تجتازها.

هل فكرت في أن تقوم بانقلاب يجعل من ذلك الأمير الغريب ملكاً على مصر ليقف بجوارها في صراعها ضد الكهنة؟ أم فكرت في أن تنقل على يده وبفضله دين التوحيد الذي اعتنقته ووقفت له حياتها، من مصر حيث يهدده الانهيار، إلى بلاد الحيثيين حيث قد يساعدها الحظ لنشره والتبشير بمذهبه، وحمل الناس على تطبيق مبادئه وطقوسه؟.. هذا سر حملته نفرتيتي معها إلى القبر، مع الأسرار الكثيرة التي دفنت مع الملوك والملكات في تلك العصور الغامضة.

لبى الملك سوبو ألهوما نداء الأرملة الحسناء بعد تردد طويل وتفكير عميق، وأوفد ابنه سوبو الصغير في ذلك الموكب الفخم الذي عهد بقيادته إلى صفيه ومؤتمنه الضابط حاطوم. وسبق الموكب إلى مصر ثلاثة رسل، بين سفر كل منهم وسفر الآخر ثلاثة أيام. حملوا إلى الملكة السابقة الخبر السار الذي أعاد الأمل إلى نفسها، فباتت تنتظر وصول الزوج الثاني، وتعد العدة لعمل ما، تقدم عليه عندما تأزف الساعة.

وكان زوج ابنتها في أثناء ذلك قد تبوأ العرش بمساعدتها، وبات حائراً بين الاحتفاظ باسمه "توت عنخ آتون" إرضاءً لها، أو تغيره باسم "توت عنخ آمون" نزولاً على الكهنة واتقاء لشرهم!

والموكب في طريقه، من بلاد الحيثيين، يقترب من حدود الدولة المصرية!

الوقت يمر، والأيام تتتابع، والضابط حاطوم يداعب سيفه في كل مساء، ثم يعمد في كل صباح إلى التحايل على سوبو الصغير، ابن الملك؛ لإقناعه بالعودة إلى بلاده، وبأن مشروع الزواج الذي هو قادم عليه محفوف بالمخاطر، قد ينتج عنه ما يضر بالأسرتين، ويثير الحقد والتفرقة بين البلدين، لكن الأمير الشاب لم يقتنع، بل قرر متابعة السير، للوصول إلى مصر في أقرب وقت.

وقرر الضابط، بعد أن يئس من إقناعه، أن يغتاله تنفيذاً لعهده تجاه أخته. لا يريد سوبو الصغير أن يرجع إلى بلاده حياً، فليرجع إليها إذن جثة هامدة، وعند أطراف الصحراء، فوجئت القافلة ذات يوم بالضابط حاطوم يعلن، عند الفجر، أن الأمير سوبو وجد مقتولاً في فراشه، بضربة سيف مزقت صدره واخترقت منه القلب، وأن على كل واحد من المرافقين له أن يساهم في معرفة القاتل والاقتصاص منه، وأن الموكب سيتوقف عن السير إلى الأمام، ويعود أدراجه إلى عاصمة المملكة، حاملاً جثة القتيل إلى الملك!

لم يقتنع سوبو ألهوما بما نقله إليه الضابط، ولم يتردد في اتهامه بأنه هو القاتل، وبأن أخته ثايثانا هي المحرضة له على اقتراف جريمته، وأمر بأن يقتل حاطوم بضربة سيف تمزق صدره وتخترق قلبه، كما قتل هو الأمير الشاب الذي عهد إليه بحراسته، واعترفت الأخت بالحقيقة، ولكن هذا لم ينقذها من الموت أيضاً، فقد أمر سوبو ألهوما بوضعها في كيس وإلقائها في بئر!

وبكت الملكة نفرتيتي زوجها الثاني الذي لم تعرفه، بعد أن بكت زوجها الأول الذي ذاقت معه السعادة والهناء، وبكت أيضاً آمالها وأحلامها، وحفرت الدموع آثاراً عميقة على الخدين الناعمين، خدي أجمل ملكة جلست على عرش، منذ أن وجدت العروش وتبوأتها النساء!

فكانت نفرتيتي، ربة الحسن في عصرها وفي جميع العصور، أرملة مرتين! وماتت حزينة كئيبة، في الثانية والعشرين من العمر.

سيتي واليتيمة الحسناء

تيتمت ثلاث مرات، وأبت أن تتزوج، ودفنت نفسها حية في قصر...

ونقل جثمان فرعون المحنط من ضفة إلى أخرى ...

الخبر الذي جعل القوم يفرحون ويتنادون للاجتماع، هو أن فرعون مصر سيتي الأول قادم على رأس جيش لجب ولتأديب العصاة في أطراف مملكته وملحقاتها، وأنه يقترب من معاقلهم في زحف رهيب. لقد دب الرعب في نفوس الخارجين على طاعته، ففرت قبائل "شاسو" نحو الشمال ممزقة الشمل لا تلوي على شيء، والتحقت بحلفائها من الأموريين والخيبريين، وهم العبرانيون. والفريق العاصي من سكان روتينو، وكل هؤلاء يبغون الصمود ومواجهة الجيش المصري الزاحف في المرتفعات الجنوبية من جبال لبنان، محتمين بها، على أمل أن يصل حلفاؤهم الحيثيون من الشمال لشد أزرهم ودفع الخطر الداهم عنهم.

أولئك الهاربون الفزعون هم الذين تستعد العشيرة اللبنانية الصغيرة، وأنسباؤها القادمون لنجدتها من ربوع دمشق وهضابها، للانتقام منهم، والثأر لما سفكوه من دماء رجالها، ولمن ساقوهن سبايا من نسائها وبناتها. وقعت تلك المذبحة في عهد رمسيس الأول عندما تحالف الحيثيون مع أولئك الأقوام لمهاجمة مصر، فرفض ملوك الثغور الفينيقية أن ينضموا إليهم، ونسجت على منوالهم العشائر الضاربة في الجبال والوديان بين الساحل ومدينة دمشق، ومن بينها العشيرة التي يودها "رانو" والنازلة في الغابة الواسعة، عند منابع الأردن.

فوجئت العشيرة ذات يوم بهجوم جيرانها عليها، انتقاماً منها لأنها خذلتهم، وبالرغم من النجدة التي تلقتها من أصدقائها في الساحل والداخل، غلبت على أمرها، وانصرف عنها المعتدون دافعين أمامهم جميع

النساء والعذارى سبايا ذليلات، بعد أن قتلوا معظم الرجال وفر الباقون هائمين على وجوههم في خفايا الجمال.

خمسون رجلاً أو أقل نجوا من تلك المجزرة، ولم تبق بينهم غير فتاة واحدة هي "حانيت" ابنة "رانو" الوحيدة، التي سقط أبوها في المعركة، وسقط حوله إخوتها الأربعة، وانتحرت أمها على جثته!

تلك البقية الباقية من عشيرة رانو هي التي فرحت وهللت ونحرت الذبائح، يوم بلغها خبر قدوم الجيش المصري بقيادة فرعون متجهاً إلى الشمال، أي إلى مقر العشيرة ومعقلها، وحشد أعداء فرعون في النهاية جموعهم عند بلدة يانوحام المنيعة الحصينة عند سفوح لبنان الجنوبية وهناك دارت المعركة الفاصلة. والى هناك وافى فرعون سيتي حلفاؤه من الفينيقيين القادمين من الساحل، وأبناء العشائر الوافدين من ضواحي دمشق، وأنسبائهم الهابطين من أعالي الجبال أو النافرين من بطون الوديان، وهم الذين عرفهم قدماء المصريين باسم "لبنانو"[٤].

وكان في مقدمة الملبين لداعي الثأر والانتقام، الرجال الباقون من عشيرة رانو، وفي طليعتهم الفتاة الوحيدة، حانيت، ابنة الزعيم الراحل. كانت المعركة دموية فاصلة، قادها سيتي الأول نفسه في جميع مراحلها، التي استمرت من شروق الشمس حتى غروبها، وقد مني فيها أعداء فرعون

---

[٤] لبنانوهم اللبنانيون _ سكان جبل لبنان

بهزيمة منكرة، فتكدست أشلاؤهم في الميدان، وهربت فلولهم تطلب النجاة في المسالك الوعرة، وبقي في قبضة الجيش المنتصر عدد كبير من الأسرى.

حاربت عشيرة رانو وفتاتها الباسلة بشجاعة وإيمان، مبعثهما الرغبة في الثأر والانتقام أولاً. والولاء لفرعون ثانياً.

وشكر سيتي الأول حلفاءه على نجدتهم، وهنأهم على بسالتهم، وطلب منهم أن يعودوا إلى مواطن إقامتهم، مطمئنين على سلامتهم، غير قلقين على غدهم، وتقدم منه كبارهم ورجوا منه أن يتقبل منهم هدية من نبت أرضهم وإنتاج تربتهم، تكون لديه دليل إخلاصهم وولائهم، فقبل فرعون ما عرضوه عليه.

وألقى رجال العشائر أسلحتهم، وحملوا فلوسهم، وانطلقوا في الجبال يقطعون الأشجار كبيرة وصغيرة، ويفصلون الأغصان عن الجذوع والجذور، ويهذبونها ويصقلونها، ويحملون ذلك كله إلى فرعون، ولما هم الجيش بالتحرك عائداً إلى مصر بجموع الأسرى وأكداس الأسلاب، تقدمت الفتاة حانيت، وطلبت من فرعون أن يسمح لها بأن ترافقه مع بني قومها، أو على الأصح مع من بقي منهم حياً بعد المعركة، وأن يتولى رجال العشيرة حراسة الهدية التي قدموها إلى سيتي الأول. أكوام محزومة بالحبال، من جذوع الأرز الصلب، والسنديان الضخمة والصنوبر الممشوق، ورزم منسقة من أفنان النسرين والريحان، والأعشاب الطيبة، والعيدان العطرية، والأزهار المجففة، ذلك هو نبت الأرض وإنتاج التربة، وتلك هي الهدية التي

حملها أبناء العشيرة الوفية وحرسوها في الطريق، وهم ذاهبون إلى مصر مع الجيش العائد إليها، ظافراً منصوراً..

في مصر، أصر الباقون من عشيرة رانو على أن يلحقهم سيتي الأول بصفوف جيشه، لكي يساهموا في الحروب الآتية، كما ساهموا في الحرب التي انتهت بمعركة يانوحام، فأجابهم فرعون إلى رغبتهم. وأرادت فتاتهم ابنة رانو أن يكون مصيرها كمصيرهم، ولكن سيتي الأول رفض أن يحقق لها تلك الرغبة، وقال: أنه خير لها أن تبقى في قصره ملازمة لزوجته "تولي" وأنه يشملها برعايته، ولكي تجد في كنفه وفي كنف الملكة، ما فقدته من حنان الأب والأم، بعد الكارثة التي حلت بالعشيرة في عهد أبيها، ورضخت حانيت لإرادة فرعون، والتحقت بخدمة الملكة، واستحوذت على عطفها، وأصبحت أقرب الوصيفات إلى قلبها.

واستأنف سيتي الأول حروبه وغزواته، في الشرق والغرب والجنوب، ولما استقر له الأمر واطمأن إلى سلامة المملكة وحدودها من هذه الجهات الثلاث، تطلع إلى الهدف الأكبر الذي وضعه نصب عينيه منذ أن خلف أباه على العرش، وهو إخضاع الحيثيين في أقصى الشمال، ووقفهم عن مواصلة عدوانهم على أطراف الأقاليم الآسيوية من الدولة المصرية.

زحف بجيشه مرة أخرى، في الطريق الذي سلكه من قبل إلى مواطن الشاسو وحلفائهم، ووجهته في هذه المرة أبعد منها في المرة السابقة، ودارت رحى معارك جديدة بينه وبين ملوك الحيثيين والشعوب التي التفت

حولهم، وانتهى ذلك الصراع العنيف بعقد معاهدة صلح بين مصر وبلاد الحيثيين، تعد أول وثيقة من نوعها في التاريخ.

وبعد عودة سيتي الأول إلى بلاده، ليبشر شعبه ببدء عهد جديد يسوده الوئام والسلام كان يحمل معه للفتاة اليتيمة التي تركها في قصره، خبراً جعل الدموع تنفجر من عينيها الواسعتين.

لقد مات جميع أبناء عشيرتها في خلال تلك الحملة الشاقة، ماتوا موت الأبطال، في ميادين القتال، فكانوا شجعاناً أوفياء إلى آخر نسمة من حياتهم. أصبحت حانيت يتيمة مرة أخرى، لم يبق لها أحد من قومها على قيد الحياة!.. العشيرة كلها انقرضت! وبقيت فتاتهم وحيدة في العالم!

لكنها وجدت العزاء على ما حل بها، وعلى الأحزان التي عانتها، في العطف الذي غمرها به فرعون سيتي وزوجته تولي. مرت الأعوام والفتاة تعيش في القصر وتلازم الملكة وتتفانى في خدمتها..

أعوام ذاقت فيها مصر حلاوة السلم ورغد الهدوء، وانصرف خلالها سيتي الأول إلى تشييد المعابد والهياكل، وحفر تاريخ فتوحه ومآثره على لوحات من الحجر نصبت في جميع أنحاء المملكة، وخص بجزء كبير من اهتمامه المقبرة التي أعدها لنفسه، لتكون مأوى جسده بعد موته، ومرتع روحه في العالم الآخر.

واستخدم فرعون في تلك المنشآت العظيمة، أخشاب الأشجار التي قطعها له سكان الجبال، بعد معركة يانوحام، وجاءوا بها مع جيشه عند عودته إلى مصر.

حاول الملك المحظوظ، الذي ضحك له السعد في أيام الحرب وأيام السلم على السواء، أن يقنع الفتاة اليتيمة الحسناء بأن تتزوج ضابطاً من ضباط جيشه، الذين حاربوا معه في بلادها، وأن تختار بنفسها ذلك الزوج الذي يرجوه لها، وتعيش في هناء وسعادة مع رجل يخصها بحبه، ويشملها بحمايته، فتبادله الحب وترعاه بعنايتها.

لكن حانيت رفضت، أن أملها الوحيد في الحياة، والبناء الذي تطمع فيه، والسعادة التي تتوق إليها كل هذا مفرغ في أمنية واحدة، وهي أن يمتد العمر بفرعون، وأن تبقى هي ساهرة على راحة زوجته!

لم يمتد العمر بفرعون! فقد تبوأ عرش مصر أقل من عشرة أعوام من سنة ١٣١٣ إلى سنة ١٢٩٢ قبل الميلاد، ومات قبل أن ينتهي المهندسون والعمال من إعداد المقبرة التي سيدفن فيها، وقد وضع جثمان فرعون في تابوته، بعد تحنيطه، والعمل في انجاز المقبرة لا يزال جارياً على قدم وساق.. ويوم نقل الجثمان المحنط على مركب الجنازة، من ضفة النيل إلى الضفة الأخرى ومن حوله النساء النادبات، نهضت من بينهن حانيت اليتيمة، وتناولت من طيات ثوبها خنجراً عاري النصل، فاجتزت به شعرها

المسترسل على ظهرها، وألقت خصلاته الطويلة السوداء على النعش الذي ضم الجثمان العزيز!

تلك هي التقاليد السارية في البلد الذي جاءت منه، والتي تعبر بها المرأة أو العذراء عن حزنها، وتقطع على نفسها عهداً، قبل مواراة الميت في قبره، بألا تتخذ من بين الرجال زوجاً، ولا ترفع صوتها بالغناء، ولا تشارك رفيقاتها في أفراحهن ومسراتهن، ودفنت حانيت نفسها حية في قصر فرعون وقد شعرت بأنها قد أصبحت، بعد موته يتيمة للمرة الثالثة!

وقضت بقية حياتها منزوية في حمى تولي، زوجة فرعون الراحل سيتي الأول، وأم فرعون الجديد، رمسيس الثاني.

تكاتف العالم بأسره لإنقاذ معابد أبي سنبل من الغرق في مياه "السد العالي".

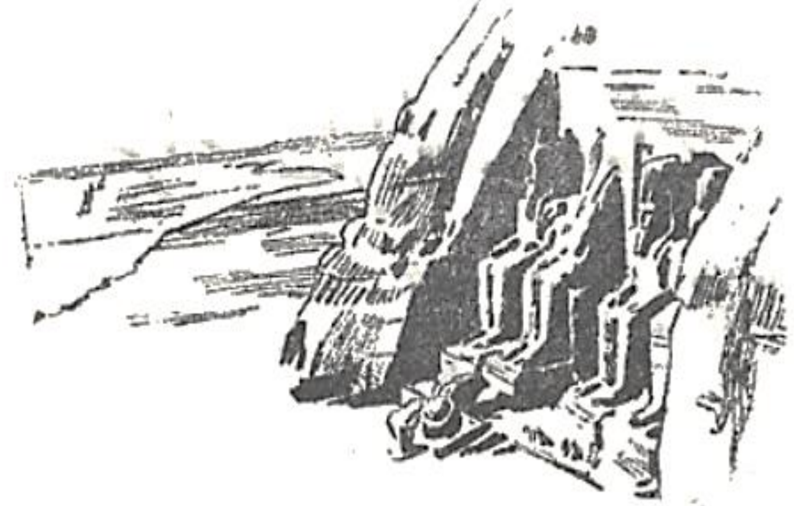

مدخل المعبد في أبي سنبل

"من أجلك خلقت بلاد خيتا، لكي تجعلها تابعة لقصرك، وأوحيت إلى أهلها بأن يسعوا إليك من تلقاء أنفسهم، حاملين إلى ذاتك الملكية جزية رؤسائهم، وفي طليعة الموكب ابنة ملكهم، لإدخال السرور إلى قلب جلالتك. إنها تحفه رائعة. جاءت إليك بدون أن تعلم أنني اتخذتها أداة لإرضائك".

هذه العبارات، خاطب بها الإله القدير ابنه وحبيبه رمسيس الثاني فرعون مصر، فسجلتها أيدي النحاتين باللغة الهيروغليفية، على أحد جدران المعابد المحفورة في جوف الجبل، على ضفة النيل المبارك، في المكان المعروف بأبي سنبل، ببلاد النوبة.

رفع رمسيس الثاني إلى الذروة مجد مصر الخالدة، فخلد الفنانون ذكراه في لوحاتهم المنقوشة، وصوروه في تماثيلهم المنحوتة في الصخر الأصم، واحتضنته آلهة مصر، فكان حبيبها المفضل في حياته وفي مماته!

وابنة ملك خيتا _ وخيتا هي بلاد الحيثيين _ التي جاء ذكرها في اللوحة الهيروغليفية، كانت هدية من الإلهة إلى ربيبها فرعون، لكي يضمها إلى زوجاته. كان الملك خيتسارو _ أو خاتوسيل كما يسميه قدماء المصريين _ أشد أعداء مصر عناداً، وأبعد خصوم فرعون طموحاً، وأوسع الملوك سلطاناً وجاهاً وقوة، في البلدان الممتدة إلى شمال مصر وشرقها جمع حوله شعبه والشعوب المجاورة وتحدى رمسيس في مطلع ملكه، فمشى إليه فرعون، واصطدم الفريقان في معركة "قادش" ثم في غيرها من المعارك، وانتهى الأمر بمعاهدة صلح وقع عليها رمسيس وخايتسارو، في سنة ١٢٧٨ قبل الميلاد، فكانت فاتحة عهد سلام ورخاء في الشرق، دام نحو نصف قرن، انصرف رمسيس في خلاله إلى تحقيق مشروعاته العمرانية في طول المملكة وعرضها...

وبعد أن حل الوئام محل الخصام بين فرعون مصر وملك الحيثيين؛ أراد خايتسارو أن يوجد رابطة رحم مع رمسيس، فأرسل إليه كبرى بناته، في موكب يضم الفرسان والمشاة والعبيد والجواري، تتقدمه الفتاة العذراء، وتتبعه العربات المملوءة بالطنافس والتحف والأسلحة الغالية والأقمشة المزخرفة، هدية إلى فرعون.

تقبل رمسيس الهدية، وأنزل العروس ابنه الملك الحليف منزلة خاصة في قلبه. وسماها"ماتنيفرورِع" ومعنى هذا الاسم "المرأة التي ترى جمال رِع...."، وطلب من شاعره "بنتاءور" الذي تغنى بانتصارات الجيش المصري وفتوحه، أن يصف جمال الزوجة الحسناء في قصيدة ينشدها المنشدون على أنغام الموسيقي، فلبى الشاعر أمر مولاه، وخص "القمر القادم من الشرق، المطل من فوق الصحاري ومن وراء الجبال" بأبيات دونها الخطاطون في أوراق البردي...

حكم رمسيس الثاني ميامون _ أي حبيب آمون _ البلاد المصرية وهو ولي عهد أبيه سيتي الأول، وتولى العرش في الثامنة عشرة من العمر، ومات في الخامسة والثمانين بعد ملك دام سبعاً وستين سنة! لكنه ترك أيضاً للأحقاب الآتية أضخم إرث خلفه ملك في التاريخ، ومجموعة من الآثار الباقية على كر الزمن، يقف أمامها الإنسان مدهوشاً مذهولاً خاشعاً!

على مقربة من شلالات النيل في بلاد النوبة، حفرت الأيدي المصرية لفرعون سلسة من المعابد في قلب الصخور، ونحتوا له أربعة تماثيل هائلة الحجم، تحرس الباب الرئيسي وتدعو الزائرين إلى الدخول، وفي جوف الجبل، ممرات وسراديب وقاعات، تصطف إلى جوانبها تماثيل الآلهة، وتحمل سقوفها الأعمدة الممشوقة، وتحكي لوحاتها تاريخ ذلك العهد الزاهر، بما تخلله من حروب ومعارك وغزوات وفتوح وانتصارات، وما امتازت به إدارة الدولة العظيمة من دقة وعدل وأحكام، وما تمتعت به البلاد الخاضعة لفرعون من عيش رغد ورخاء وازدهار.. وخص رمسيس الثاني كل رب من الأرباب، الذكور منها والإناث، الآلهة والإلهات، بركن من المعابد المتتابعة، وهياكل لحرق البخور ونحر الذبائح، وحجرات تأوي الكهنة وخادمات الأرباب من النساء. ومخازن للأواني المقدسة وأدوات العبادة المشبعة بالعطور.

وكان فرعون يقوم برحلات منظمة إلى تلك المعابد النائية، في أطراف مملكته، وحول عظماء البلاد ومعاونوه في حكمها وإداراتها، وآلاف مؤلفة من رعاياه، في جموع تملأ الأرض على ضفاف النهر العظيم، أو تنتقل بالمراكب والزوارق على صفحة الماء...

في يوم من الأيام، تقدمت الملكة مانتيفرورع إلى زوجها وسيدها بطلب لم يتردد فرعون في إجابته، وإرضاء للزوجة المحبوبة، وتحقيقاً للرغبة التي أفضت بها إليه، فهو لم يرفض لها في حياتها طلباً، ولم يصد لها رغبة... قالت مانتيفرورع:

– في القصر أيها المولى العزيز القدير، وصول من لدى أسرتي، في بلاد الحيثيين حلفائك ورعاياك، والرسول جاء يعرض على مسامعك ويطلب مني أن أقوم بالوساطة بينك وبينه _ بعرض رغبة الأسرة المالكة هناك، في إيفاد عشرين عذراء من بنات الحيثيين، إلى عاصمة ملكك، هدية من الشعب الذي أنتمي إليه، إلى أسرة الملك الذي خصني بعطفه وغمرني بنعمته، فهل تقبل الهدية اليوم، كما فعلت من قبل يوم ارتضيتني أن هدية إليك من أبي خايتسارو؟ فالعذارى العشرون راغبات في أن يشملهن عطفك كما شملني، وفي أن تصبح كل منهن ملكاً لمن تختاره لها من أبنائك أو من الشبان الذين يستحقون منك لفته خاصة!.. والرسول في انتظار الرد، ليحمله إلى أسرتي في البلاد التي جئت منها لتنفذ الأسرة أمر فرعون!

فطبع رمسيس الثاني على جبين الزوجة الطيبة قبلة صامتة، دلت على قبوله ورضاه... وما مرت أسابيع حتى كان الموكب في طريقه إلى مصر، يقطع السهول والجبال والأنهار، كما قطعها موكب آخر، في الماضي ليوصل ابنه خيتساورو إلى حليفه فرعون.

بنات انتقاهن أهل مانتيفرورع من بين الغيد الحسان في وطنهن الأول: سمراوات وشقراوات، طويلات وقصيرات ممتلئات الأجسام ونحيفاتها. فهن من كل نوع من أنواع الجمال، ومن كل لون من الألوان الحسن، نموذج أو أكثر وعلى نحورهن وفي أعناقهن وحول زنودهن كل ما تمكنت أيدي الفنانين الحيثيين أن تصنعه وتتفنن في صنعه من حلي تختلط فيها الحجارة الكريمة بخيوط الفضة والذهب!

أوصى فرعون زوجته الحيثية بأن تكرم وفادة العذارى من بنات جنسها، وأن تدعوهن إلى رحلات برية ونيلية، لكي يشاهدن ما في مصر من غرائب، ويعرفن كل ما يجب أن يعرفنه عن البلاد التي أصبحت وطناً ثانياً لهن، كما أصبحت من قبل وطنا ثانياً لها هي، وأعدت مانتيفرورع العدة لتحقيق ما أوصى به زوجها فرعون...

وكان أول ما فكرت فيه أن تصحب الحسان إلى المعابد القصية في أعالي النيل عند شلالاته، وأن تقيم معهن أياماً في داخل تلك المعابد الفريدة في نوعها، وتلقنهن العبارات التقليدية المقدسة، التي ينشدها الكهنة وتترنم بها خادمات الهياكل، في صباح كل يوم.

زارت العذارى الحيثيات معابد الآلهة، وأنشدن الأناشيد، وأصغين إلى الأنغام الساحرة، وحضرن الحفلات الدينية التي أقيمت من أجلهن في ذلك المكان المقدس، ورفعن إلى الأرباب في مقرها المجهول آيات الشكر على ما أغدقه فرعون عليهن من صنيع حسن. وجاء الموعد المحدود لعودتهن مع الملكة من حيث أتين، بعد انقضاء أسبوعين على إقامتهن في تلك الربوع...

عهدت مانتيفرورع إلى قائد القافلة بأن يخرج بالعذارى في نزهة الوداع، وقالت إنها راغبة في قضاء يومها كله داخل المعبد، في عزلة بين الناس، وفي مناجاة الآلهة؛ التي استجابت لها وحققت أمانيها وجعلت منها امرأة موفورة الكرامة والسعادة...

دخلت مانتيفرورع المعبد وخرجت الفتيات العشرون في مركب واحد، زحف بهن على ظهر النيل، وارتفعت في الجو أصواتهن بالغناء والتهليل، وامتزجت أنغامهن بالضحكات البريئة العالية، وخيل إليهن أن الدنيا كلها تضحك في وجوههن!

وحدث ما لم يكن أحد يحسب له حساباً، وما لم يعرف أحد فيما بعد له أسباباً!.. هل أخطأ البحارة في قيادة المركب وإدارة دفته؟ هل اصطدم المركب بصخر تخفيه المياه؟ هل كان في قاع المركب ثقب لم يفطن إليه المسئولون عن صيانته، هل أدت تحركات العذارى إلى اختلال التوازن ووقوع الكارثة؟ سر ظل مجهولاً ولا يزال.. تبدلت الأغاني والأنغام والأناشيد، فتحولت إلى صيحات رعب وفزع، وانقلب المركب بمن فيه، وابتلعت المياه أجسام العذارى! عبثاً حاول البحارة ومن أسرع من الناس إلى النجدة، أن ينقذوا الغريقات البائسات: لم ينشلوا غير جثث فارقتها الحياة!

وهرولت الملكة من داخل المعبد إلى حيث الصياح والعويل، ووقفت مذعورة مرتعشة، تنظر إلى الكارثة المروعة! عشرون فتاة عذراء، أرادت مانتيفرورع أن تجعلهن عرائس لعشرين من أبناء فرعون أو أبناء من يصطفيهم، فإذا بالنيل يخطفهن ويجعل منهن عرائس له!

هل غار النهر المقدس من البشر، فعمد إلى ابتلاع العرائس اللواتي جيء بهن من بلاد الحيثيين، فحملهن من قصر فرعون ضاحكات فرحات،

وأعادهن إلى القصر هامدات صامتات؟ رجعت الملكة مانتيفرورع بالمراكب من حيث أتت بها، ومعها جثث العذارى تغمرها الأزهار والرياحين!.. العرس تحول إلى مأتم، وموكب الفرح تحول إلى جنازة! وتأثر فرعون مما حدث، فأمر بأن تدفن العذارى الحيثيات في مكان واحد، وأن تندبهن النادبات، وتنوح عليهن النائحات، وأوفد إلى بلاد الحيثيين رسلاً يحملون منه التعزية إلى أسرة الملكة مانتيفرورع، ومعهم الهدايا والهبات، عملاً بالعادة المتبعة في الأفراح والأتراح على السواء..

وضاعف عطفه على الملكة المحبوبة، لكي ينسيها ما انتابها من اضطراب، وما خفق به قلبها من حزن على بنات قومها اللواتي حرمها النيل إياهن، وحرم إياهن أيضاً عشرين من شبان مصر وفتياتهما. وقال فرعون:

– الحياة جميلة أيتها الحبيبة، والحزن لا يدوم، والنسيان في طبيعة الإنسان، وسوف أطلب من أسرتك، هناك في بلاد الحيثيين، أن توفد إلينا بدل العشرين من العذارى ضعف هذا العدد منهن، لكي تحل القادمات محل الغارقات، تنسيننا بضحكاتهن ما سببته الكارثة المؤسفة من دموع تساقطت من عينيك الواسعتين!

وجاءت من بلاد الحيثيين عذارى أخريات، رائعات الحسن مثل السابقات، فأهداهن فرعون رمسيس إلى أصحاب الحظوة لديه زوجات جليلات، وعرائس حللن في قلوب الأزواج محل العرائس اللواتي حرمهم النيل إياهن، في غضبة من غضباته، وثورة من ثوراته!

نحن السابقون

طاف المصريون والفينيقيون حول القارة الأفريقية للمرة الأولي في التاريخ، ووصلوا إلى عالم جديد عرف فيما بعد باسم "أمريكا!"

البحارة الفينيقيون في رحلاتهم البعيدة

أقيمت الزينات في مدينة منف، وجعل الناس يجوبون الطرقات والأزقة والميادين، وبأيديهم المشاعل، ينشدون ويهزجون ويرقصون، ابتهاجاً بالنصر المبين الذين أحرزه نخاو الثاني، فرعون مصر، على دولة

اليهود في أرضها، فزعزع أركانها، وهزم جيشها في معركة ماجدو، وترك ملكها قتيلاً مضرجاً بدمه، وعاد إلى عاصمته، معززاً، مكرماً، على رأس جيشه الباسل المظفر، وكان ذلك في سنة ٦٠٩ قبل الميلاد.

دامت الأفراح والأعياد عشرة أيام بلياليها، أطلق الشعب المصري فيها لمرحه العنان، وجدد فيها العهد لمليكه كما جدد فيها العهد لشعبه، بأن يعمل الجميع يداً واحدة لخير مصر، والنهوض بها من كبوتها، والعودة بها إلى سابق عزها، ومجدها، وسؤددها.

خلف نخاو الثاني أباه بسمتيك الأول على عرش مصر، وأقسم أن يواصل السير في الطريق التي شقها أبوه العظيم، الذي طهر أرض الوطن من الآسيويين الغزاة أعداء الوطن، ولقد بر بالقسم فكانت نهضة مصر في عهدة رائعة شاملة.

وما عاد حتى كبار رجال الدولة حوله في قاعة العرش الفسيحة، فأطلعوه على ما حدث من أمور في غيبته الطويلة، وما حققوه من مشروعات عمرانية، ونفذوه من أوامر أصدرها إليهم قبل نهوضه لمحاربة اليهود وحلفائهم في أرض فلسطين، فأقرهم على ما فعلوا، وأفضى إليهم بما يريد منهم أن يفعلوه فوق ما فعلوا في سبيل مصر وعرشها وشعبها، وانصرف نخاو برجاله إلى الإصلاح الداخلي، بعد أن تم له تأمين الحدود من الخطر الخارجي.

دخل الحاجب على فرعون يقول:

– مولاي.. إن الضيوف الفينيقيين الذين وصلوا إلى منف قادمين من الشرق، لا يزالون مقيمين في القصر، وهم يرجون المثول بين يديك.

فأجاب فرعون على الفور:

– إلي بهم!.. لقد نسيت أولئك الأصدقاء الأوفياء، الذين لحقوا بي من مدينة صور إلى ميادين القتال، فقد شغلتني عنهم المعارك، وكنت طلبت إليهم أن يسبقوني إلى مصر، فأهلاً وسهلاً!

وفتح فرعون ذراعية مرحباً، عندما ظهر بباب القاعة رجلان وامرأة، هم الضيوف الذين حدثه عنهم الحاجب:

– أهلا بك يا عبد بعل يا أمير البحار، وبك يا سانكون يا أمهر الملاحين، وبك أيضاً يا ميليت، يا سيدة قارئات الغيب!

وتقدم الضيوف الثلاثة من نخاو وحيوه تحية بلادهم، فرفعوا أيديهم فوق رءوسهم، وأعادوها إلى صدورهم، وقال كبيرهم عبد بعل:

– نهنئك بالنصر يا فرعون، لقد سبقناك إلى هنا، ولم نضع الوقت سدى، فأعددنا في غيبتك العدة للقيام بالرحلة التي حدثناك عنها ووافقت عليها.

– لا أزال عند وعدي يا عبد بعل، وسوف تبحرون على سفنكم بإذن الآلهة بعد أيام.

ثم التفت نخاو إلى المرأة الفينيقية التي سماها "سيدة قارئات الغيب" وقال:

– وأنت يا ميليت، أمازلت مصممة على الرحيل معهم فوق الأمواج؟ أم أنت تفضلين الآن البقاء عندنا، حيث تبارين مع العرافين المصريين في تمزيق الحجب عن المستقبل المجهول؟

فأجابت العرافة الفينيقية بصوت عذب رنان:

– أنا ابنة عبد بعل زوجة سانكون أيها المولى، فاسمح لي بأن أرافقهما في رحلتهما الشاقة، فإنهما سيحتاجان إلي في تتبع حركات النجوم وسير الكواكب، وفي السهر على راحتهما، أن البحر موطن الفينيقي الأصيل، ومكان الفينيقية إلى جوار بعلها! سأسافر.

– إذن على بركة الآلهة أيها الأصدقاء!

كان القائد البحري الفينيقي عبد بعل، وهو من أبناء صور، قد أقنع فرعون مصر، نخاو الثاني، بأن يحشد عمارة من السفن الفينيقية، ويبعث بها على ظهر البحر في رحلة طويلة، لكشف سواحل القارة السوداء كلها، بالطواف حولها، وعنى بالقارة السوداء إفريقية، وكان البحار الفينيقي يؤكد لعاهل مصر أن تلك القارة ما هي إلا جزيرة كبيرة مترامية الشواطئ والأطراف، وأن في استطاعة السفن، إذا ما تسلم قيادها ربان ماهر، أن تدور حولها وتعود ثانية إلى الموانئ المصرية من الجهة المقابلة.

واقتنع فرعون، فأمر بإعداد السفن اللازمة لتلك الرحلة البعيدة المحفورة بالمخاطر، وتوكل على الآلهة وعلى أصدقائه الفينيقيين في القيام بها على أحسن وجه، وقابل ضيوفه الثلاثة قبل رحيلهم بيوم واحد، وتمنى لهم النجاح والتوفيق. وخاطب ميليت العرافة قائلاً:

– سوف نحرم تكهناتك يا ميليت، فزودينا منها قبل الفراق!

فأجابت العرافة بصوتها العذاب الرنان:

– سمعاً وطاعة أيها المولى، لا بد من تزويدك منها قبل الفراق، فمن يدري؟ لعله يطلع علينا من أعماق الظلمات ما لم يكن في الحسبان، فألقى حتفي.

ثم جلست ميليت القرفصاء، وجعلت رأسها بين يديها وأغرقت في الصمت، حتى خيل للناظرين إليها أنها فقدت الحركة والإحساس، وجعل العرق يتصبب من جبينها ووجها وعنقها، وأخيراً رفعت رأسها وانبعثت من بين شفتيها تضرعات خافتة لآلهة بلادها، ثم اتجهت إلى فرعون وقالت:

– أيها المولى! لقد أمرت رجالك بأن يعيدوا حفر القناة التي سبق لسلفك العظيم سيتي الأول أن حفرها فوصلت ما بين البحرين: الأبيض والأحمر، مارة بالبحيرات المالحة، وإني أرى – من وراء حجاب الغيب – أن في عملك هذا ما قد يجلب الضرر على مصر، فإن حفر هذه القناة، ووصل البحرين، سيعود بالفائدة على الغريب دون القريب، وعلى الأجنبي دون الوطني، أنك اليوم تتقاضى الرسوم على مرور الناس والبضائع في

أرضك، وتتحكم في مصير البضائع والناس، أما غداً إذا فتحت بين البحرين طريقاً يسلكه الجميع فقد تفقد سيطرتك على البضائع والناس، وقد تجعل للخطر منفذاً إلى قلب بلادك، فبحق الآلهة وبحق الوطن عليك، مر بوقف العمل، وكف عن مواصلة الحفر، فلا كانت قناة ولا كان اتصال!

دهش نخاو لتوارد الخواطر بين العرافة الفينيقية ميليت، والعرافة القرطاجية كيرا، وهي ابن الكاهن زنجارا، وكانت قد نزلت من قبل في ضيافته، وقرأت له في صفحة الغيب، وحذرته إعادة فتح الطريق المائية بين البحرين. وها هي ذي عرافة أخرى، جاءت من فينيقية، تقرأ في صفحة الغيب ما قرأته القرطاجية فيها، فتردد الأخرى على مسامع فرعون ما قالته له الأولى! فقال نخاو:

– جاءني تحذير سابق يا ميليت، وعملت بموجبه، فقد أمرت بالكف عن مواصلة الحفر وأنت على حق فيما تقولين: فلا كانت فتاة ولا كان اتصال قد يجلب على مصر الأضرار، ولو احتمالا!

– قد يستأنف الحفر غيرك في مستقبل الأيام، ولكن الخسران سيصحبك ذلك العمل، والندامة سترافق صاحبه. وعندها سيذكرك الناس وسيحمدونك!

– ولكن حدثيني عن رحلة الغد، هل سيقدر لها الفوز؟

– نعم ستتم الرحلة على خير ما يرجى، غير أني لا أضمن أن يعود الكل منها سالمين، لقد قمنا من قبل أيها المولى برحلات أبعد من هذه، وأكثر مجازفة. وقضينا في رحلتنا الأخيرة ستة شهور، فوق المحيطات

الشاسعة، لا نرى غير السماء ونجومها ليلاً، والمياه الزرق وحيتانها نهاراً، حتى بلغنا في النهاية شواطئ جزيرة هائلة مجهولة، تغرب الشمس فيها بعد شروقها عندنا بيوم كامل، تختلط تربتها بالذهب، وتغطي أرضها الغابات، وتجري فيها أنهار تحاكي النيل هيبة وجلالا، ثم عدنا نحن وبقي هناك منا رفاق، ربما لا نتصل بهم بعد اليوم أبداً. وقد يبذرون في ذلك العالم الجديد بذور أمة، وينشئون دولة، كما فعل مواطنون لهم من قبل في بقاع أخرى من الأرض شرقاً وغرباً، وسيأتي في مستقبل الأيام من يكشف عن تلك الأرض البعيدة من جديد، فيجد فيها سلالة أولئك الرفاق الذين شقوا الطريق إلى أقصى الغرب، فسبقوا إليه، وسيكون لهم من بعد ذلك أيها المولى لاحقون!

– إنك تبعثين الأمل والثقة في نفوسنا يا ميليت!

– إن السفن التي تبنيها الآن أيها المولى للطواف حول القارة السوداء، ستتم الرحلة وترجع إليك سالمة، وسوف يجئ أيضاً في مستقبل الأيام من يعيد الكرة، ويكشف من جديد في سفن أفضل من سفننا نحن، تلك السواحل التي سنحمل إليها تحية فرعون!

– إذن فحدثوا الشعوب التي تلقونها في طريقكم عن مصر ونيلها، وعن فينيقيا وموانيها.

– سنحدثهم أيها المولى، وسنغذيهم بنتاج أذهانكم وأذهاننا. سنعلمهم كيف يقرءون ويكتبون، سنلقنهم الصور الناطقة وحروف الهجاء، سنذهب عقولهم بالآيات التي حفرها كهنة مصر على جدران الهياكل، وسنخبرهم كيف قهرنا البحار في سفن صنعناها من خشب الأرز

والسنديان، سندربهم على ترويض الأمواج، وتبديد الظلمات، والتغلب على الصعاب، وتبادل السلع والمنتجات، وعبادة الآلهة واستمطار رحمتها، وتشييد المعابد والهياكل، وترتيل الصلوات والأناشيد، والعزف على الأعواد والنفخ في المزامير، حتى إذا ما جاءت شعوب، أخرى في مستقبل الأيام، وجدت السبيل أمامها ممهداً، والطريق مفتوحاً، والزرع مغروساً!

فنهض فرعون على قدميه، ورفع يديه إلى السماء مبتهلاً.

– لتسدد الآلهة خطواتكم.. سيروا بسلام على بركتها، وفي حراستها!

أنشأ فرعون نخاو أسطولاً من سفن فيها ثلاثة أفواج من الجدافين للمرة الأولى، في التاريخ، وانطلق الأسطول من الموانئ المصرية على البحر الأحمر، وشق طريقه في البحار والمحيطات، ودار حول الطرف الجنوبي للقارة الأفريقية، وسار صعداً نحو الشمال، فاجتاز مضيق "ملكارت" الذي عرف فيما بعد بمضيق "جبل طارق" وعاد إلى الساحل المصري الشمالي، بعد رحلة استغرقت ثلاثة أعوام، كان الوفاق في خلالها تاماً بين البحارة المصريين والبحارة الفينيقيين الذين قاموا بذلك العمل الجبار!

لقد تحقق حلم نخاو الثاني في الطواف حول القارة السوداء، ولكنه لم يستطع أن يهنئ العرافة الفينيقية بنجاح الرحلة، كما هنأته هي من قبل بانتصاره في ماجدو، ذلك لأن ميليت ماتت في الطريق، فألقيت جثتها في البحر، مقبرة البحار من قديم الزمان!.

وقال فرعون لعبد بعل وسانكون ورفاقهما، لما أرادوا العودة إلى بلادهم:

- احملوا تحيات مصر وملكها إلى مدينتكم وشعبها المقدام، فقد قمنا معاً بأعمال عظيمة، وسوف يتبعنا من يتم عملاً بدأناه، ويسير في طريق سرنا فيه؛ فنحن السابقون وهم اللاحقون!

فرعون ويهوذا

قالت العرافة ابنه الكاهن لفرعون:

"إن دولة يهوذا لا يؤمن جانبها ولا سبيل إلى اتقاء شرها إلا بإزالتها من الوجود!"

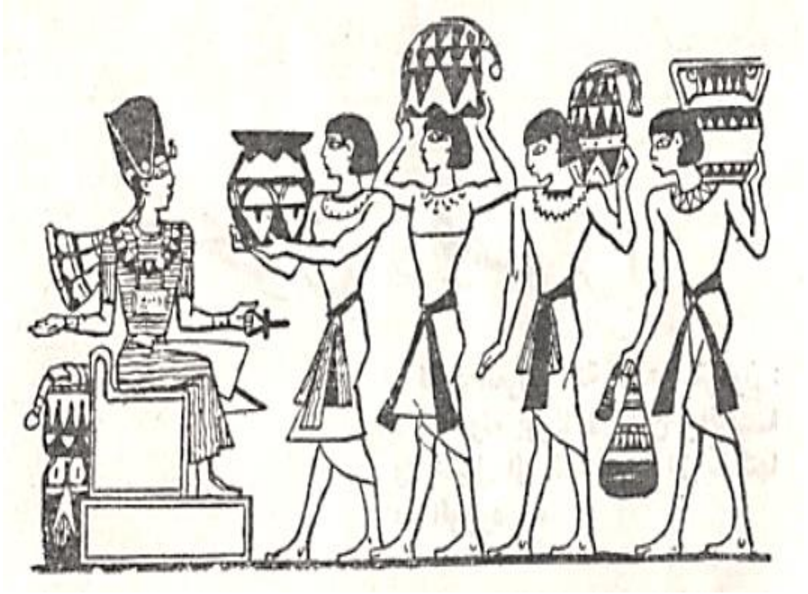

الهدايا إلى فرعون من البلدان التي فتحها والشعوب التي دوخها

قال فرعون "نخاو" للفتاة القرطاجية، بعد أن أصغى باهتمام إلى القصة التي روتها على مسامعه أمام الحاشية الملكية:

– أنت هنا في أمان يا كيرا، وعناية الآلهة هي التي شاءت أن تدفع العاصفة بالسفينة المصرية إلى ذلك الساحل الإفريقي، حيث تحطمت سفينتك على الصخور، لكي ينقذك رجالنا في هلاك مؤكد، والآن بعد أن عرفت ما حدث لك، بقي علي أن أخبرك بأن أباك "زنجارا" ليس غريباً علي!

عم الفتاة السرور لسماعها هذه الكلمات من فرعون، ووقفت أمامه حائرة لا تفوه بكلمة، وقرأ "نخاو" على محياها رغبتها في المزيد من الإفصاح، فاستطرد قائلاً:

– لا يدهشنك هذا، فإن زنجارا الكاهن الورع، والعالم المطلع، قد زار مصر كما تعلمين وأقام فيها بعض الوقت، في عهد أبي "بسماتك" وكنت في ذلك الوقت صغيراً أكتفي باللعب مع رفاقي أبناء كبار المملكة ولكنني أذكره، أذكره جيداً، ولا أنسى كيف أنه رفعني ذات يوم بيديه القويتين، وقال لأبي وهو يحدق في ببصره الحاد: "ابنك هذا هو الذي سينتقم لك من ملوك يهوذا"! ولم أفهم معنى هذه العبارة إلا فيما بعد. وقالت كيرا:

– أيها الملك، لقد علمني أبي كيف أمزق حجب الغيب، وأقرأ في صفحة المستقبل كأنها صفحة الحاضر، وأخاطب النجوم فترد على بلغة أفهمها ولا يفهمها سواي، وسأضع معارفي هذه كلها في خدمتك، كما وضع أبي معارفه في خدمة أبيك!

وأمر "نخاو" فرعون مصر بأن تخصص للفتاة الغريبة حجرة في جناح النساء بالقصر الملكي، وأن تقوم بخدمتها ثلاث وصيفات، وراح يفكر في غرائب المصادفات التي تسوق مصير البشر، وتدفع بعضا إلى اتجاه بعض، وتفرق بينهم أو تجمع، وتبعد أو تقرب، كأنها تلعب بهم كما يلعبون هم بالحصى!

وتذكر وصية أبيه: "كن عادلاً في الداخل، واسهر على سلامة الدولة، واحذر الغدر من الخارج: إن الكلدانيين وحلفاءهم يطمعون في خيرات بلادنا، ومملكة يهوذا تلعب لعبتين بيننا وبين الطامعين فينا، فاحذر القائمين بأمر هذه الدولة، وإياك أن توليهم ثقتك، فقد غدروا بي أربع مرات، ولم أثأر لنفسي منهم بعد!"

تذكر "نخاو" الثاني تلك الوصية التي أفضى بها أبوه قبيل وفاته، وتذكر تكهن الكاهن القرطاجي زنجارا، بأنه سينتقم لأبيه من يهوذا.. قال في نفسه أن وصول كيرا، ابنة زنجارا، إلى مصر، في ذلك الوقت بالذات، لهو فأل حسن بلا شك.

نعم، أن وصول الفتاة لفأل حسن، فقد روت للملك أنها كانت عائدة إلى وطنها قرطاجة، بعد طواف طويل في معابد فينيقية، ومعها عمها وابنه، ففاجأت سفينتها في الطريق عاصفة هوجاء دفعتها إلى الشاطئ الإفريقي، فتحطمت على الصخور، ولولا لطف الإله ووجود سفينة مصرية

دفعتها العاصفة أيضاً إلى ذلك المكان، ما خرجت الفتاة من هذه المحنة حية.

وطلبت كيرا من البحارة أن يأخذوها إلى الملك ففعلوا، وهكذا وجدت الكاهنة ابنة الكاهن نفسها بين يدي فرعون نخاو الثاني، ابن فرعون بسماتك، الذي أكرم وفادة أبيها من قبل، كما اكرم ابنه وفادتها هي. وكانت دولة يهوذا، في الشرق، وعلى مقربة من حدود مصر، عاملاً من عوامل القلق، وسبباً من أسباب الاضطراب: تذكر "نخاو" ما قاله له الكاهن زنجارا القرطاجي وهو طفل في كنف أبيه، فأراد أن يسمع ما تقوله ابنة الكاهن، كيرا وهو ملك جالس على عرش أبيه!

عاشت الفتاة في القصر لا فرق بينها وبين أية امرأة من نسائه، معززة مكرمة، وكان فرعون نخاو يغترف من مناهل علمها، ويقارن بين ما يسمعه منها وما سمعه من كهنة مصر الواسعي الاطلاع.

وجاء اليوم الذي شعرت الفتاة فيه أنها استكملت استعدادها الجسدي ورياضتها الروحية، لتستطلع الغيب وتقرأ في صفحته ما دون فيها الفرعون نخاو، ولتنحر ذبيحة لآلهة قرطاجة وتفحص أمعاءها وتغتسل بدمائها، وتقضي في النهاية إلى الملك الذي وثق بها وأحلها في كنفه، بما ينتظره في مستقبل الأيام، وبما يجب عليه أن يفعل في السنوات الباقية له على الأرض.

وقالت كيرا بنت زنجارا القرطاجي: "إنك تفكر أيها الملك في تطهير الطريق المائي الذي كان في عهد أجدادك يصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر خلال أرض مصر الطاهرة، والذي غمرته الرمال وأزالت معالمه فإياك أن تفعل، إياك أن تعيد قناة المياه إلى ما كانت عليه، فإن هذا الطريق المائي سيكون شؤماً على مصر، لأن الوقت لم يحن بعد لإعادة فتحه!

إنك تفكر أيها الملك في رحلة بحرية طويلة تقوم بها السفن المصرية في الخضمات الشاسعة، بقيادة أصدقاء لك من بحارة فينيقية، فافعل ولا تتردد، فإنها لرحلة سوف تخلد اسمك على مر الأجيال لأنك ستفتح بها فتحاً جديداً عظيماً!

"إنك تفكر أيها الملك في الزحف شرقاً للقاء خصومك قبل أن يزحفوا فافعل ولا تتردد، ولكن أحذر خيانة ملك يهوذا الذي يعرض عليك صداقته، إنها صداقة منطوية على زغل!

"إنك تفكر أيها الملك في وسيلة تضمن بها وقوف يهوذا بجانبك لاتخاذ هذه الدولة كمنطقة أمان بينك وبين أعداء مصر، فلا تطل التفكير، إن يهوذا دولة لا يؤمن جانبها ولا سبيل إلى اتقاء شرها لا بإزالتها من الوجود، فاضربها أيها الملك، أو حرض عليها من يضربها، فإن الراحة لن تعم بال السكان في هذه الديار، والاطمئنان لن يعود إلى النفوس في هذه

البقاع، إلا إذا هدم عرش يهوذا، وهلكت الدولة المزعجة، وتشتت شعبها في أنحاء الأرض:

"أيها الملك، لا تحالف ملك يهوذا لأنه سيخونك، ولا تحارب معه جنباً إلى جنب لأنه سيخونك من الخلف، وسوف تندم إن فعلت!"

هذا ما قالته الكاهنة القرطاجية، التي أنقذها رجال فرعون من الهلاك، واستضافها فرعون في قصره، وأحبها وأحبته، ولكن الحب بينهما ظل بريئاً، تتخاطب فيه الروحان، فقد قالت كيرا لفرعون:

– إن أبي قبل موته، جعل مني خليفته، ورسمني كاهنة للربة تانيت، والكاهنات في معابد تانيت لا يتزوجن ولا يستسلمن للحب، وأنا هنا، في قصرك، أحسب نفسي في هيكل من هياكل تانيت، لأننى حولت حجرتي إلى معبد انصرف فيه إلى الصلاة!

وفطنت نساء القصر جميعاً إلى ذلك الحب الذي نشأ بين فرعون والفتاة الغريبة، ولكنهن فهمن أيضاً حقيقة ذلك الحب، فاحترمته ولم تكن الملكة نفسها أقل احتراماً لتلك العاطفة النبيلة من النساء الأخريات!

أما فرعون، فقد أكبر موقف الفتاة التي أحبها، وزاده هذا تمسكاً بما تكهنت به يوم نحرت ذبيحتها لتانيت، الربة القرطاجية، وقرأت في جوفها، واستطلعت صفحة الغيب، وفسرت سير النجوم، والكواكب، وقالت

لفرعون ما يجب عليه أن يفعل، وعمل فرعون "نخاو" بنصائح الفتاة، لأنه اقتنع بأنها إرادة الآلهة نطقت بلسان الكاهنة.

كان يفكر فعلاً، قبل أن يفقد أباه، وقبل أن يرتقي العرش، في تنفيذ المشروع الذي قرره بسماتك في أواخر عهده، والقاضي برفع الرمال والأتربة من القنوات التي كانت من قبل تربط فروع النيل بعضها ببعض وتمتد خلال الصحراء من شاطئ البحر المتوسط إلى بلدة "كتسيماء" الجاثمة في طرف الخليج المؤدي إلى البحر الأحمر، والتي عرفت فيما بعد باسم "السويس"

واقتنع الملك، بعد مشورة الخبراء، وبعد المقارنة بين الفوائد والأضرار الناجمة عن تحقيق ذلك المشروع في الظروف الراهنة بأن العدول عنه خير وأوفى، وأن الأفضل لمصر أن تصون الطريق البري بين البحرين وتتحكم فيه، من أن تعيد فتح الطريق المائي القديم.

وبدون تأجيل، قرر فرعون تنفيذ ما كان البحارة الفينيقيون يقترحونه عليه، وإنشاء أسطول يجوب البحار ويطوف حول القارة الإفريقية، بينما كان نخاو الثاني يفكر في ذلك جاءته الأخبار من يوشيا ملك يهوذا، بأن الكلدانيين وحلفاءهم بدءوا الزحف نحو مصر، وإنهم يهاجمون الأشوريين حلفاء المصريين، فلا بد لهؤلاء من نجدة، وإلا فالهلاك مصيرهم، ولم يتردد فرعون في الزحف لنجدة حلفائه، معتمداً على ملك يهوذا أيضاً، ليلتحق به مع جيشه.

وقلب يوشيا لفرعون ظهر المجن، وبان على حقيقته؛ فانقلب عليه وحاول أن يطعن الجيش المصري من الخلف! لكن نخاو كان أسرع وأبعد دهاء: فقد وثب بجيشه على جيش يهوذا في سهل "ماجدو" وشتت شمله، ومزق صفوفه، وتركه أثرا بعد عين، وقتل الملك يوشيا في حومة الصراع، فلقي جزاء خيانته وغدره وكان ذلك في سنة ٦٠٩ قبل الميلاد، وكانت كيرا صادقة!

وتقول التوراة في سفر الملوك "إن عبيد يوشيا أركبوه ميتاً من ماجدو وحملوه إلى أورشليم حيث دفنوه في قبره"، ونادى الشعب بابنه "يواجاز" ملكاً خلفاً لأبيه، "وصنع الشر في عيني الرب على حسب جميع ما صنع آباؤه من قبل!"

ورفض فرعون "نخاو" الاعتراف بالملك الجديد، فخلعه، وأخذه أسيراً إلى مصر، وأقام ملكاً مكانه أخاه "الياقيم بن يوشيا" وسماه "يوياقيم"، ومات" بواجاز" بمصر! ولما أصبح ملك يهوذا من صنائع فرعون، وربيب نعمته، ومديناً له بعرشه، ظن نخاو أن الوفاء سيجعل الملك يوياقيم يحافظ على العهد أكثر من أبيه، لكنه كان مخطئاً في ظنه، وكانت كيرا القرطاجية هي الصادقة! فقد استأنف نخاو، الحرب واعتمد مرة أخرى على ملك يهوذا، فخان الابن حليفه كما خانه الأب من قبل، وتفاقم خطر الأعداء وتكاثر حلفاؤهم، فتراجع فرعون إلى ما وراء حدوده، وآثر الانتظار على التسرع، واختار الحكمة بدلاً من الحماقة.

وكررت الكاهنة القرطاجية ما سبق لها أن قالته له: "إن يهوذا دولة لا يؤمن جانبها، ولا سبيل إلى اتقاء شرها إلا بإزالتها من الوجود.. فاضربها أيها الملك، أو حرض عليها من يضربها!"

وقرر فرعون نخاو أن يريح نفسه من أعدائه جميعاً، بأن يحرضهم بعضهم على بعض! كلهم يريدون به شراً، ويكيدون له سراً وعلناً، فليعمل هو لإعادة كيدهم إلى نحورهم. رسم خطة بارعة أدت إلى نشوب القتال بين الكلدانيين واليهود، فانتصر الكلدانيون، واجتاحوا دولة يهوذا، وساقوا سكانها أسرى إلى ضفاف الفرات، ومنذ ذلك الوقت، بدأ تشتيت اليهود في أنحاء العالم.

أما نخاو، فقد اعتصم في بلاده بعد أن ضاعف تحصينها وأتقن الحراسة كلها، وأقام المخافر والقلاع، وأفرغ همه في تقوية الجيش وتسليحه وتدريبه، لدرء الخطر به إذا وقع الخطر، أو لضمان الفوز إذا ما اضطرت مصر إلى الزحف خارج حدودها، وعرفت مصر في عهد "نخاو" العزة والمنعة والرخاء والاطمئنان، وذاق فرعون لذة النصر، وعرف كيف يتلافى عواقب الأخطاء التي وقع فيها، وكيف يبتعد عن الخطر إذا كان شاعراً بأنه ليس في وسعه التغلب عليه.

وكان سعيداً في حياته الخاصة، سعيداً في زواجه، سعيداً بذريته! وظل وفياً لكيرا الكاهنة العاشقة. أما كيرا فقد رحلت عن مصر بعد أن تحققت المرحلة الأخيرة من مراحل تكهناتها، واقتص فرعون من ملوك يهوذا، يوشيا

وبواجاز، ويوياقيم: الأول بأن قتله، والثاني بأن خلعه فمات من الحزن، والثالث بأن ألقاه في فم الأسد الكلداني فافترسه الأسد!

أما كيف رحلت، فقد أراد ذات يوم أن يحملها على الخروج عن عنادها، والعدول عن تحفظها، والاستجابة لنداء الحب:

– أما زلت متمسكة برأيك يا كيرا؟

وجه فرعون إليها هذا السؤال، فإذا بها تجهش بالبكاء؛ وتهرع هاربة من الحجرة! وكانت هذه أول مرة تخون كيرا فيها نفسها، وتعجز عن حبس دموعها.

وفي اليوم التالي، جاءته هادئة، جميلة، ملتفة بخمار أرجواني _ اللون الفينيقي القرطاجي _ وجلست بجانبه؛ وقالت بصوت متهدج ينم عما يتلاطم في صدرها من مشاعر فائرة:

– حبيبي! حبيبي! إن بقيت هنا في قصرك، في بلدك، في مملكتك، فإنني لن أقوى على الصبر، ولن أحافظ على طهارتي، وطهارتي أمر لازم، وشرط لابد منه لمن وقفت حياتها مثلي، لخدمة الربة تانيت، حبيبي.. أحبك، ولأني أحبك، ولأنك تحبني، يجب أن نفترق، لم أفعل في مصر ما يمكن أن يكون موضع نقد أو مؤاخذة، وسأترك عندكم في هذا البلد المحبوب، ذكرى طيبة معطرة!

وأخذ فرعون رأس الفتاة النبيلة الطاهرة بين يديه، وطبع على جبينها قبلة طاهرة!

قاهر الوحوش

كان عبداً رقيقاً، وكان أيضاً جباراً عنيداً فانتزع حريته انتزاعاً من مخالب الأسد

مصارعة الوحوش

شهدت مدينة الإسكندرية في صيف سنة ٢٧٥ قبل الميلاد، مهرجاناً فخماً دام عشرين يوماً، وأمر بطليموس الثاني بأن توزع النقود والمؤن على الفقراء بلا حساب، وأن تبسط الموائد في الشوارع والميادين

كي يأكل الناس ويشربوا على أنغام الموسيقى، فقد أقيم ذلك المهرجان احتفالاً بزواج بطليموس للمرة الثانية، إذ كان قد غضب على زوجته الأولى _ وكانت غريبة عن أسرته _ فطلقها وأرسلها إلى المنفى، ثم تزوج أخته التي عرفت في التاريخ باسم "أرسينوي الثانية" وكان زواج الأخ بأخته من العادات المألوفة عند البطالسة وغيرهم في ذلك العهد.

أما بطليموس الثاني فقد عرف باسم "ميلادلف" أي المحب لأخوته لا لأنه كان في الواقع يحبهم، بل لأنه كان يكرههم كره الموت، ولأنه قتل منهم اثنين عندما اعتلى عرش مصر! وأرادت الملكة الجديدة أن تزيل من القصر كل أثر للزوجة السابقة، فأبعدت عنه جميع الخدم والعبيد والجواري والوصيفات، وجاءت بأشخاص تثق بهم وتطمئن إليهم، حتى لقد طلب إليها زوجها أن تبقى في خدمتها واحدة فقط من وصيفات زوجته الأولى فرفضت، فأرسل بطليموس يستدعي تلك الفتاة لينظر في أمرها، إذ كان يعطف عليها عطفاً خاصاً، لأن أباها أنقذه مرة من الغرق وراح ضحية شهامته ووفائه.

كان اسمها "عمرة" هي ابنة رجل عربي من قحطان، جاء به بطليموس من البلاد التي شرق نهر الأردن، حيث كان يشتغل بتجارة الخيول بين تلك البلاد وصحراء العرب، وعهد إليه بالإشراف على خيول القصر والحرس، وترتيبها وترويضها، إلى أن مات تاركاً ابنته الوحيدة أمانة في عنق الملك، وكانت "عمرة" في عنفوان الشباب، بارعة الحسن، سمراء اللون، سوداء الشعر والعينين، فتولى بطليموس أمرها، وجعلها من

وصيفات زوجته الأولى، فكانت مثال الولاء والإخلاص. أطلعها بطليموس على قرار زوجته الثانية بإبعادها عن القصر، وقال: أنه سيبعث بها وديعة إلى أية أسرة تختارها من أسر القواد والحكام، فبكت عمرة وطلبت إليه أن يعيدها إلى البلاد التي جاءت منها، لكي تبحث عن أهلها وذويها، وتقضي حياتها بين ظهرانيهم حرة من كل ضغط وقيد وأجابها الملك إلى رغبتها..

كانت عاصمة البلاد التي عبر الأردن تدعى "ربة عمون" منذ إقامة العمونيين فيها وإنشاء دولتهم في تلك البقاع الوعرة، وقد خربها الملك داود، واجتاحها الأشوريون، ودكت معالمها للمرة الثالثة في الحروب التي نشبت بين خلفاء الإسكندر المقدوني بعد وفاته. وعندما قسم قواد الفاتح العظيم ملكه الشاسع، ألت بلاد الأردن الشرقية إلى البطالسة الذين تبوءوا عرش مصر، واتخذوا الإسكندرية عاصمة لملكهم، وهكذا جلست على عرش مصر أسرة غريبة أخرى، حكمت البلاد بضع مئات من السنين، وقد جعل بطليموس الثاني من الإسكندرية عروس حواضر الشرق، تزهو بميادينها وشوارعها، وبالمنارة القائمة على صخرة "فاروس" عند مدخل الميناء تلك المنارة التي عدت فيما بعد إحدى عجائب الدنيا السبع.

وجه بطليموس الثاني عناية خاصة إلى "ربة عمون" فأعاد بناء أسوارها وقصورها على قمة الجبل ومعابدها وهياكلها في الوديان والملعب الفسيح المنحوت في سفح تل صخري، ثم أطلق عليها اسمه، فعرفت منذ ذلك الوقت باسم "فيلادلفيا"، وفى أثناء زيارته للمدينة الجديدة أهدى إليه

"سيور" أبو عمرة فرسين عربيين أصيلين، فقبلهما بطليموس، واصطحب معه الرجل وابنته إلى الإسكندرية فأقاما فيها إلى أن كان ما كان، وعندما طلبت "عمرة" أن تعود إلى شرق الأردن لتلحق من هناك ببني قومها وتستعيد حريتها،كان الملك يعد العدة لإيفاد بعثة من عظماء الدولة في موكب كبير إلى فيلادلفيا، لإحياء الحفلات فيها أسوة بعواصم بقية الأقاليم الخاضعة له، بمناسبة زواجه، فالتحقت عمرة بالموكب مزودة بالمال والهدايا.

هبط سكان فيلادلفيا من أعالي الجبل إلى قاع الوادي حيث أعدت العدة لإقامة المهرجان في الملعب الفسيح، فأخذ الحكام والقضاة والكهنة أماكنهم في الشرفة الأولى، واعتلى الشعب المدارج فملأها على سعتها، وانتشر الذين لم يجدوا لهم مكاناً في الملعب على المشارف المجاورة، وهى ستة تلال تحيط بالمدينة وتنساب بينها مياه الغدير العذبة، مغردة على حصى الوديان، ساقية أنواعاً عدة من الأشجار والرياحين، وجلست عمرة مع الجالسين في الشرفة الأولى مع رسل بطليموس ورجاله القادمين من مصر، يتصدرهم رئيس تلك البعثة "فيليب القبرصي" القائد المحنك الذي تولى إخضاع القبائل في التخوم الشرقية.

وكان برنامج الحفلة رائعاَ، فقد تتابعت في حلبة الملعب جماعات من الموسيقيين والمغنين والشعراء والمنشدين، كل منهم يعزف على آلة أو يترنم بأغنية، أو يتلو قصيداَ أو يرتل نشيداَ، وتشابك الراقصون والراقصات في حركات فنية بديعة على أنغام القيثارة والمزمار، وتبارز أرباب السيوف والرماح فقتل منهم من قتل وجرح من جرح، وتصارع المتصارعون ففاز

منهم من فاز، ونقل المغلوبون إلى الخارج وقد تفككت مفاصلهم وسحقت عظامهم، وعرض المروضون كلابهم وقرودهم وحميرهم وجاء رجل فينيقي بدب أسمر يلعب بالسيف والترس، وتبارى الفرسان العرب على مئون جيادهم الأصيلة التي حملتهم من بطن الصحراء للاشتراك في ذلك المهرجان.

وكانت خاتمة هذه المشاهد منازلة رجل إفريقي لأسد هائج، فقد وقع ذلك الرجل في الأسر وهو على رأس عصابة من اللصوص عاثت في صحراء مصر فساداً فحكم عليه بالإعدام. ولكن الرجل اقترح أن يوضع وجهاً لوجه مع الوحوش الكاسرة، فإما أن تفترسه وينتهي الأمر، وإما أن يتغلب عليها فيظل على قيد الحياة حراً طليقاً، وانقضت ثلاثة أعوام على إقامته في الإسكندرية، تغلب فيها على أربعة أسود ونمر وضبع وخمسة ذئاب. وأراد بطليموس أن يساهم قاتل الوحوش هذا في مهرجان فيلادلفيا فأرسله إليها مع بعثته، ليصارع أسداً هائجاً فيقتله أو يلقى في المصارعة حتفه.

نزل الرجل إلى حلبة الملعب عاري الجسم لا يستر عورته غير خرقة حمراء وفي يمينه خنجر صغير وقد لف ذراعه اليسرى بقطعة من الجلد المتين، وأطلق الأسد من قفصه الحديدي، فاندفع في الحلبة ثائراً مزمجراً وعلت أصوات المشاهدين داعية الزنجي الإفريقي إلى الحذر ورباطة الجأش، وضاعفت الأصوات غضب ملك الغابات فارتفع زئيره المخيف وبعث الرعب في النفوس، ورأى الزنجي يقترب منه مقلعاً زئيره، فضرب الأرض

بذيله، ونفض ذؤابته، ووثب نحو فريسته مكشراً عن أنيابه.. ولكن الرجل تلقى الصدمة بذراعه اليسرى، وجعل يلاعب الأسد كما يلاعب القط الفأر، فكان المشهد هائلاً لم تقع أعين سكان فيلادلفيا من قبل على مثله، وما هي إلا دقائق معدودة، حتى تمكن الرجل من تسديد طعنة من خنجره إلى عنق الأسد، فسال على الأرض دمه، وبلغ هياجه مبلغاً عظيماً، فدار حول الحلبة قفزاً وعدواً، حتى إذا ما وصل أمام الشرفة الأولى حيث مندوب الملك وحاشيته تحفز فجأة ووثب وثبة زادها الألم لم يتمكن من التعلق بها فسقط على ظهره، وكان الزنجي قد أسرع إليه رافعاً خنجره فأغمده في عنقه مرة ثانية فثالثة، فلهث وتدفق الدم من فمه على حين وضع الزنجي قدمه على رأسه حتى أصبح جثة لا حراك فيها، وظل الزنجي على حسب الوعد حراً طليقاً!

ولكن الذعر كان قد استولى على الناس فعلا الهرج والمرج، ولم يصفق للفائز غير فريق من المشاهدين في حين كان الباقون يسرعون نحو الأبواب طلباً للنجاة، ظناً منهم أن الأسد قد تسلق المدارج.. وأحاط رفاق "عمرة" بالفتاة الجريحة يحاولون مبادرتها بالإسعاف، ووقف نزيف الدم من صدرها الذي مزقته مخالب الأسد! لكن محاولتهم ذهبت سدى، فقد أسلمت المسكينة الروح في زفرة تقطع الكبد، وماتت في اللحظة التي كان العملاق الإفريقي يضرب فيها ضربته القاضية. فخرج الناس من الملعب واجمين، وانتهى المهرجان بمأتم مشى فيه فيليب القبرصي، ووراءه الكهنة وخادمات الهياكل وسكان فيلادلفيا حاملين المباخر والأزهار، فأودعوا

"عمرة بنت سيور" العربية مرقدها الأخير، في ظل عريشة وارفة على ضفاف الغدير.

مات الأسد، ولكن بعد أن انتزع من الفتاة روحها، وبعد أن انتزع العبد الإفريقي حريته من بين مخالبه! ولكنها حرية لم ينعم بها المنتصر؛ فقد مشى العملاق الإفريقي في جنازة الفتاة العربية، وبكى على قبرها مع الباكين، ولكنه لم يعد مع المشيعين بعد أن واروا فقيدتهم بالتراب؛ ففي صباح اليوم التالي، وجد العملاق ميتاً على قبر عمرة، وفى صدره النصل الذي قتل به الأسد في مهرجان فيلادلفيا. لم تقتله الوحوش الكاسرة، وقتله منظر الفتاة الميتة، فانتحر اعتقاداً منه أنه كان سبب موتها، وفى السنة التالية، زار بطليموس الثاني المدينة التي تحمل اسمه، ووقف خاشعاً على قبر ربيبته العربية التي رحلت عن مصر للقاء ذويها، فلقيت حتفها.

جواهر بطليموس

صندوق في مياه الإسكندرية ينتظر في قاعها صاحب الحظ الذي قد يعثر عليه. ويستولي على الكنز الذي فيه!

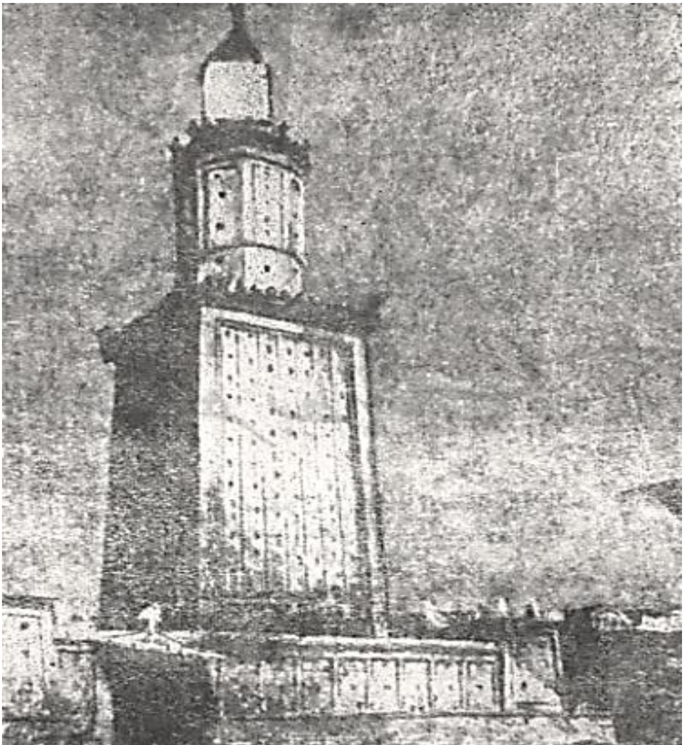

منارة الاسكندرية – إحدى عجائب الدنيا السبع شيدها البطالسة

كتب بطليموس الثالث، ملك مصر الإفريقي، إلى صديقه كليومينس ملك إسبارطة يقول: "رداً على خطابك الذي تطلب إلي فيه أن أنجدك بالمال والرجال أخبرك بأنني أجيبك إلى رغبتك وألبي نداءك. ولكنني أشترط عليك أن ترسل إلي من ناحيتك رهائن احتفظ بها مادام جنودي بعيدين عن وطنهم ولا أخالك عارضاً في أن تكون الرهائن أمك وزوجتك وأولادك، فابعث بهم إلي، وفى اليوم الذي يصلون فيه إلى الإسكندرية يبحر جنوده إلى بلاد الإغريق للانضمام إلى جيشك ومحاربة أعدائك، وثق أنني دائماً صديقك المخلص الأمين"

واضطر كليومينس إلى النزول على رغبته وقبول شروطه، لأن الضرورة كانت ترغمه على ذلك، وبعد أسابيع، وصلت الرهائن إلى الإسكندرية، وغادرها جيش بطليموس في اليوم التالي إلى بلاد الإغريق.

كان الإسبارطيون يعانون مشقات هائلة في الدفاع عن وطنهم بالرغم من أنهم كانوا رجال حرب وكفاح، وحاول كليومينس، عندما وصلت إليه النجدة المرسلة من مصر، أن يستعيد المدن التي فقدها، فكر على أعدائه مرة بعد مرة، ولكن المقدونيين تغلبوا عليه وهزموه في معركة سبلازيا سنة ٢٢٢ قبل الميلاد، فاضطر إلى الخروج من وطنه هائماً على وجهه، وطلب النجاة في ديار غير دياره، فأبحر إلى الإسكندرية، عاصمة البطالسة في ذلك الوقت، ونزل مع حاشيته ضيفاً على صديقه وحليفه بطليموس الثالث، ورحب به ملك مصر، وأعاد إليه أمه وزوجته وأولاده وأنزلهم في دار على شاطئ البحر، وعلى مقربة من القصر الملكي.

وكان بطليموس الثالث ملكاً عادلاً محبوباً من شعبه، الذي أطلق عليه اسم "المحسن" لأنه كان يعطف على الفقراء والمعوزين، ويساعد اليتامى والمساكين، ويرغب في أن يعيش الناس جميعاً في بحبوحة من الهناءة والسعادة، وبطليموس الثالث هو الذي فتح سورية وأسيا الغربية وأعاد من بلاد فارس إلى مصر تماثيل الآلهة وأسلاب المعارك التي كان دارا وقمبيز قد أخذاها من وادي النيل عندما اجتاحته جيوشه.

ولكن الأقدار أبت ألا تظل عابسة في وجه كليومينس الطريد،كان صديقه بطليموس الثالث مات بعد وصول الملك الإسبارطي إلى مصر بشهور معدودة، وارتقى العرش بعده ابنه بطليموس الرابع، وكان يكره كليومينس ويتوجس خيفة منه.

عرف بطليموس الرابع في التاريخ باسم "فيلوباتور" أي "المحب لأبيه" وقد أطلق عليه الناس هذا الاسم لا لأنه كان يحب أباه، بل لأنه كان بعكس ذلك يضمر له الشر ويرقب موته، وقد قيل: أنه دس له السم في الطعام لكي يخلفه على العرش! وكان أول عمل أقدم عليه الملك الجديد على أثر تبوئه عرش مصر، أن أمر باعتقال كليومينس وأسرته وحاشيته وزجهم جميعاً في السجن، بحجة أن ملك إسبارطة السابق يعلل النفس بانتزاع السلطة من البطالة وبسط سلطانه على مصر

كان بين رجال كليومينس الذين فروا معه من إسبارطة إلى مصر رجل شجاع يقال له "بانتيوس" وهو من المقربين إلى الملك المهزوم ومن أنصاره

المخلصين، بل أشد أنصاره إخلاصاً له ورغبة في استرجاع عرش إسبارطة وطرد المقدونيين من بلاده.

وفى الفترة التي انقضت بين وصول الملك وحاشيته إلى مصر، والقبض عليهم وزجهم في السجن، عرف بانتيوس الإسبارطي فتاة من وصيفات القصر تدعى ديمتريا، وهى إغريقية أرسلتها برنيس أخت بطليموس الثالث إلى أخيها وأوصته بها خيراً لأنها يتيمة الأبوين، ولأن أمها كانت خادمة مخلصة لبرنيس زوجة أنطيوخوس الثالث ملك سورية. أحب بانتيوس الفتاة وبادلته الحب. وأقسم كل منهما يمين الإخلاص للآخر، وتعاهدا على الزواج عندما تعود المياه إلى مجاريها ويرجع الملك كليومينس إلى إسبارطة، ولكن أماني الحبيبين وآمالهما أصيبت بضربة قاسية عندما انتقل بطليموس الثالث إلى العالم الآخر وخلفه ابنه بطليموس الرابع على العرش، فقلب ظهر المجون للإسبارطيين وألقاهم في أعماق السجون.

وباتت الفتاة ديمتريا ترقب الفرص للاتصال بحبيبها وقد ألحقه الملك برفاقه، ولكنها لم تجد إلى ذلك سبيلاً، فاستولى عليها الحزن وجعلت تندب سوء حظها وتطلب من الآلهة أن تنقذ الملك السجين وحبيبها من قبضة ذلك الظالم الذي غدر بهما، غير أن بعض أعوان الملك من إغريق الإسكندرية كانوا يعملون خفية لإخراجه من السجن. وشاءت الظروف أن تتصل ديمتريا بأحدهم فالتحقت بالمتآمرين وساعدتهم على قدر طاقتها، ونجحت المؤامرة فخرج كليومينس ذات يوم من السجن فجأة بعد أن أغرى الحراس واشتراهم بالمال، وتبعه رجاله وقد امتشق كل منهم حسامه

واندفع الجميع في شوارع الإسكندرية داعين الناس إلى العصيان والثورة، وأمام باب السجن وجد بانتيوس حبيبته الوفية في انتظاره، فتعانق الحبيبان وهمست ديمتريا في أذن الإسبارطي هذه الكلمات:

– بانتيوس.. لقد ضمنت لكم الفوز بالمال بعد أن تستولوا أنتم اليوم على معاقل الجنود، فقد أخذت من قصر الملك من الجواهر والحلي ما يكفي شراء شعب بأسره، وإقامة دولة جديدة على أنقاض دولة بائدة!

فطبع بانتيوس على جبين حبيبته قبلة حارة، وانطلق وانطلقت هي معه وراء الملك كليومينس في طلب الثأر! ولكن الآلهة كانت تحارب الملك الطريد في أمانيه، وتعاكسه في جميع أعماله، فقد أبى سكان الإسكندرية، وهم التجار الحريصون على أموالهم ومصالحهم، أن ينضموا إلى ذلك الغريب الثائر، فتغلب رجال بطليموس على الإسبارطيين وقبضوا عليهم جميعاً بعد أن سقط منهم من سقط في القتال وأعيدوا الواحد بعد الآخر إلى السجن، وأدركوا أنهم هالكون لا محالة، وكانت الفتاة ديمتريا بين الأسرى لأنها أبت إلا أن تظل مرافقة لحبيبها فحاربت معه جنباً إلى جنب وآثرت دخول السجن مع من تحب على التمتع بالحرية بعيدة عنه.

وعندما أغلقت وراء الأسرى أبواب السجن وقف الملك كليومينس في قومه خطيباً وقال:

– أيها الرفاق لقد شاءت الآلهة أن تلازمنا الهزيمة إلى النهاية وأن يقضى على أعز أمانينا فلا أرى الآن فائدة من البقاء على قيد الحياة. بل

أرى أن الموت خير لنا وأوفى، فإن الملك بطليموس الرابع سوف ينكل بنا وينتقم منا ويلقي بنا إلى السباع تفترسنا، أو إلى الفيلة تدوسنا بقوائمها، أو يأمر زبانيته بذبحنا ذبح الأنعام في هذا السجن المظلم، إن لم يكن قد فكر من الآن في شد وثاقنا وإلقائنا في البحر من أعلى أبراج قصره، ولذا فأنا أدعوكم جميعاً أيها الرفاق إلى أن تقطعوا حبل حياتكم بأيديكم وأبدأ بنفسي فأغمد هذا الخنجر في صدري!

فنهض بانتيوس وقال:

– أيها الملك المحبوب، لا أظن أحداً من رفاقنا يتردد لحظة واحدة في النزول على إرادتك والعمل بإشارتك، فكلنا نرحب بفكرتك، وخير لنا ألف مرة أن نموت منتحرين من أن يمثل بنا جنود بطليموس فنموت كاللصوص أو الجبناء، غير أن لي أمنية واحدة أرجو منك أن تصغي إليها.

– إن أمنيتك يا بانتيوس لمقضية قبل أن تفضي بها إلي فأنت أوفى الأوفياء وأخلص المخلصين. تكلم!

فطلب بانتيوس من كليومينس ألا يسمح للفتاة ديمتريا بأن تقدم على الانتحار لأنها ليست إسبارطية، ولأن الأقدار دفعت بها إلى الاشتراك في تلك الحركة الثورية دون أن يحتم عليها الواجب الاشتراك فيها، ولكن الفتاة نهضت من مكانها وصاحت:

– بانتيوس! ما كنت أظنك أيها الحبيب تقدم على أمر من شأنه أن يلحق العار بمن تحب، لقد حاربت معكم وربطت حظي بحظكم وحياتي

بحياتكم، فسأموت إذن عندما تموتون أو أبقى على قيد الحياة إذا بقيتم أحياء، غير إنني أرغب في أن أفضي إلى الملك كليومينس بسر لم أبح به إلا لك وحدك أيها الحبيب، فاعلم أيها الملك الكريم إنني حملت معي عندما غادرت قصر الملك للالتحاق بكم، صندوقاً صغيراً يحوي ثروة كبيرة، ذلك الصندوق هو الذي كان الملك بطليموس الرابع يحفظ فيه جواهر التاج والحجارة الكريمة واللآلئ النادرة التي يعتز بها البطالسة. وبين تلك الجواهر جوهرة جاء بها بطليموس الثالث "المحسن" من الشرق وكان دارا ملك الفرس يحلي بها تاجه، وقد ألقيت ذلك الصندوق في مكان من البحر لا يعرفه سواي، على أمل أن يكلل النجاح ثورتكم فننتشل الصندوق من جوف أليم ونغترف من الجواهر ما يلزمنا لإقامة عرش جديد على أنقاض عرش البطالسة، وإعادة عرش إسبارطة إليك أيها الملك. أما الآن وقد قضي على آمالنا وقررت نحن أن نموت جميعاً، فإن الكنز سيظل في مكانه ولن يعلم أحد أين دفنت جواهر بطليموس الرابع ملك مصر!

نفذ القوم عزمهم فانتحروا جميعاً، وكان كل واحد منهم يغمد خنجره في صدره دون أن تنبعث من ذلك الصدر صرخة ألم أو حسرة أو حشرجة، وكان البادي بالانتحار الملك كليومينس نفسه وتبعه الآخرون وبقي بانتيوس واقفاً في مكانه ينظر إلى رفاقه يتساقطون حوله كسنابل القمح، وكانت ديمتريا واقفة بجانبه ترمقه بنظراتها وخفقان قلبها يشتد لحظة بعد لحظة، وعندما سقط الجميع على الأرض تناول بانتيوس خنجره من غمده ورفع يديه إلى السماء وقال:

– أيتها الآلهة، يا آلهة إسبارطة، اشهدي أنني لم أتردد قط في اللحاق برفاقي، ولكنني أردت أن أثق من موتهم جميعاً مخافة أن يبقى في أحد منهم رمق من الحياة فيعالجه أطباء بطليموس فيشفى من جرحه وبعد أن يعذبوه يموت بأيديهم!

وطاف بانتيوس على جثث رفاقه وجعل يطعن كلا منهم طعنة في قلبه، وصل إلى الملك فإذا به يتحرك فأكب بانتيوس على يده يقبلها وأغمد خنجره في الصدر الملكي! وبعد أن أيقن الرجل أن الحياة قد فارقت جميع الجثث المبعثرة حوله، قدم خنجره إلى حبيبته ديمتريا وأغمض عينيه ولم يفه بكلمة، فأدركت الفتاة قصده، وبأسرع من لمح البصر أخذت الخنجر من يده وأغمدته بين ثدييها، فانتزع بانتيوس ذلك الخنجر المخضب بدم حبيبته الوفية، وطعن نفسه الطعنة القاضية وسقط على الفتاة التي أحبها جثة هامدة، وكان ذلك في سنة ٢٢٠ قبل الميلاد. بحث البطالسة كثيراً عن جواهر بطليموس الرابع ولكنهم لم يقفوا لها على أثر، وبقي أمرها سراً من أسرار التاريخ يقترن في الإسكندرية بسر قبر الإسكندر منشئ المدينة العظيمة.

القميص الأبيض

كان الفراعنة والملوك البطالسة في مصر يصنعون لأنفسهم، ويهدون إلى أصدقائهم قمصاناً من خيوط القطن البيضاء، ويعدون منها أكفاناً للرقدة الأخيرة...

القائد الروماني يوليوس قيصر

– إليّ بالنساء جميعاً: الوصيفات والساقيات والنديمات على السواء، فإنني في حاجة إليهن يا شرميون أرغب في الإفضاء على مسامعهن بأمنية لا شك عندي في أنهن سوف يساعدنني على تحقيقها، قبل رحيلي عن مصر بعد بضعة أيام.

وأسرعت "شرميون"، وصيفة كليوباترة، إلى تنفيذ أمر مولاتها، فنادت رفيقاتها وصويحباها من نساء القصر: إيينا، وهاستيا، ورينابوث، وفوتينا، وإيراس، وغيرهن من مصريات ويونانيات، فانتظمن في حلقة زاهية ضاحكة على شرفة القصر المطلة على مياه البحر الزرقاء في الإسكندرية، حول كليوباترة المستلقية على وسائد أريكتها، في ثوبها الشفاف، وبجانبها الفهد الأليف الذي جاءها به جنودها هدية من كهوف النوبة، يوم وصول يوليوس قيصر إلى العاصمة المصرية.

وقالت الملكة:

– أخواتي، إنكن أحب الناس إلي، بكن أثق وعليكن أعتمد في السراء والضراء، وقد دعوتكن اليوم لأطلعكن على ما اعتزمته، وأطلب منكن تحقيق رغبة نبتت في صدري الليلة، وأنا ساهرة في مخدعي، فهل لكن أن تصغين إلى وتجبنني إلى ما أريد؟

فانطلقت من بين شفاه النساء الأرجوانية كلمة واحدة ترددت وتكررت كتغريد العصافير:

– نعم: نعم، نعم!..

واستطردت كليوباترة تقول:

– لقد أحببت قائد الرومان يوليوس قيصر العظيم، وأحبني قيصر كما تعلمن حباً جامحاً قوياً، سيطر على أعماله كلها وملك قيادي فخضعت له خضوع الأسير لآسره، ولكن القائد المحبوب بعيد عنا الآن، يواصل مطاردة خصومه والقضاء على منافسيه في أطراف الدولة الرومانية الشاسعة حليفتنا العزيزة. ومنذ أيام، تلقيت منه خطاباً يدعوني فيه إلى اللحاق به في روما، ولا يسعني إلا أن أرضخ لإرادته، فهل تنصحنني بالذهاب؟

وانطلق التغريد مرة أخرى من بين الشفاه الحمراء:

– نعم، نعم، نعم !. .

وارتسمت على ثغر الملكة ابتسامة الرضا والارتياح، وعادت تقول:

– سأذهب إذن، وسأحمل معي كل ما يمكن أن تسعه السفينة من هدايا مصرية لقيصر المنتصر، غير أن هناك هدية ستكون على ما أعتقد أحب الهدايا إليه، فقد فكرت في أن نصنع له قميصاً من خيوط القطن المصري البيضاء يرتديه تحت حلته الرومانية الفضفاضة فيفكر فينا كما تسربل به ويذكرنا كلما خلعه عن نفسه، ولكن أين هذا القميص أيتها الأخوات العزيزات؟ إن الخيوط القطنية الرقيقة البيضاء لفي انتظار الأنامل

التي تحيك سداها ولحمتها! وقد أزف موعد الرحيل وسوف أبحر من الإسكندرية بعد ثلاثة أيام! فهل أناملكن الناعمة على استعداد لصنع هذا القميص الناصع، قبل حلول الساعة التي تقلع فيها السفينة، من الميناء؟

وللمرة الثالثة، غردت الشفاه الحمراء:

– نعم، نعم، نعم!. .

ونهضت كليوباترة فرحة مهللة:

– لنعمل إذن أيتها الصديقات الحبيبات، وسوف تكون أنامل ملكتكن أبعد الأنامل دقة، وأكثرها سرعة، في حياكة القميص المنشود!

في ٩ أغسطس سنة ٤٨ قبل الميلاد، هزم "يوليوس قيصر" خصمه "بومبيوس" في معركة "فرسال"، ولحق به إلى مصر حيث لجأ القائد الهارب إلى الملك "بطليموس ديونيزوس"، فقتله الملك وأرسل رأسه إلى قيصر ليسترضيه. ولكن القائد العظيم هالته هذه الخيانة، فعزم على الاقتصاص من القاتل، وانقسم المصريون إلى فريقين، وانتهى الأمر بأن هلك "ديونيزوس" غرقاً، وأجلس يوليوس قيصر على عرش مصر أخته كليوباترة، وشاركها في الملك أخوها الثاني "بطليموس الطفل" الذي عقد زواجه عليها، عملاً بالتقاليد المتبعة في ذلك الوقت!

وكانت الملكة في الحادية والعشرين من العمر، وكان الملك أخوها وزوجها في السادسة فقط، ولم تكن كليوباترة الطموح لتحسب حساباً لهذا

الشريك في عرش عولت على الاستئثار به دون أفراد أسرتها جميعاً، فاعتزمت منذ تلك اللحظة أن توقع الروماني المنتصر في حبائل غرامها، وأن تتحكم بقلبه ومن ثم بمصيره، ثم تتخلص بمساعدته من الأخ الصغير الضعيف!

ووقع يوليوس قيصر في الشرك الذي نصبته له الحسناء المتوجة، فأحبها، وهو الكهل البالغ الثالثة بعد الخمسين من العمر، وأصبح لا يطيق صبراً على فراقها.

ولبست الإسكندرية – بأمر من الملكة – حلة الأفراح والأعياد، وشاهدت تلك العاصمة المصرية، التي اتخذها القائد الروماني الكهل، وكليوباترة الصبية، مسرحاً لغرامهما العجيب، بأروع مظاهر اللهو، وأبهج الليالي الملاح...

ولكن القائد اضطر اضطراراً إلى الرحيل عن مصر لمواجهة الأخطار المحدقة ببلاده، وقمع الثورات القائمة في بعض أقاليمها، فعز عليه الفراق وأوفد الرسل بعد الرسل إلى حبيبته البعيدة، لتحلق به في روما عاصمة الإمبراطورية.

أبحرت كليوباترة ملبية نداءه، في سنة ٤٥ قبل الميلاد، بعد أن تخلصت من أخيها الزوج بالسم، وجعلت ولياً للعرش طفلها "قيصرون" ثمرة غرامها الروماني، حاملة معها الهدايا الثمينة، ومن بينها القميص

الأبيض، الذي حاكته أناملها وأنامل وصيفاتها من خيوط القطن المصري في ثلاثة أيام!

– إنها لهدية أيها الحبيب سوف تذكرك بالحبيبة في صحوك وفي نومك سواء أكانت كليوباترة بجانبك أم بعيدة عنك، لأن هذه الهدية ستلازمك أكثر من ظلك، فتلامسك وتلامسها في الليل والنهار!

وعانق يوليوس قيصر كليوباترة وقال بصوت تخنقه العبرات:

– وإنها أيتها الحبيبة لأعز الهدايا لدي، فسوف ألبس هذا القميص الذي ساهمت أناملك في حياكته، وأباهي به، وأعده ليكون لي في نهاية العمر كفنا يلفني في طريقي إلى العالم الآخر!

ونزلت ملكة مصر في قصر أعده لها سيد روما على ضفاف نهر التيبر، وأراد أن يحاكي البذخ فيه بذخ القصور المصرية على شاطئ الإسكندرية وضفاف النيل، وشاهدت العاصمة الكبرى بدورها وقد اتخذها القائد الروماني الكهل، وكليوباترة الصبية، مسرحاً لغرامهما، وخيل لهما أن الدهر لا يعد لهما غير السعادة والهناء، وفاتهما أن الدهر غادر لئيم، وأن السعادة لا تدوم، والهناء لا بد أن يتبعه شقاء!

في الخامس عشر من شهر مارس سنة ٤٤ قبل الميلاد، ذهب يوليوس قيصر كعادته إلى مجلس الشيوخ الروماني، وقد أعد عدته لمواجهة الحملة التي قيل له أن خصومه من أعضاء المجلس سوف يشنوها عليه،

لمحاسبته على أعمال القسوة التي ارتكبها ضد الشعب، وعلى الانحلال الخلقي الذي يبدو منه، في سلوكه مع الملكة الغريبة التي نسي واجبه بسببها.

ولما هم بدخول قاعة المجلس، دس رجل مجهول في يده ورقة سطرت فيها كلمات التحذير من مؤامرة دبرت لاغتياله، ولكن القائد المتكبر لم يأبه بالتحذير ولم يكترث، ووقف صامداً متعجرفاً يرد على التهم ويفندها، حتى إذا ما اقترب منه المتآمرون وأحاطوا به، وقدموا إليه عريضة يطلبون فيها العفو عن الأشخاص الذين اعتقلهم أو أطلق زبانيته في أثرهم للقضاء عليهم، صاح قيصر بهم قائلاً: "لن أعفو عن أحد، وسوف يلاقي كل متآمر عنيد جزاءه!"، حينئذ، لمعت في أيدي المتآمرين النصال، وانهالوا بها على يوليوس قيصر، صائحين: "مت إذن يا طاغية روما وظالم الرومانيين!"

وسقط يوليوس قيصر على الأرض والدماء تنهمر من جراحه! وأسرع أصدقاؤه وأعوانه لنجدته، ولكنهم وصلوا إليه بعد فوات الوقت، فرفعوا عنه الحلة الرومانية، وإذا بهم أمام جثة هامدة، مزقت النصال صدرها، ومزقت معه القميص المصري الأبيض، الذي أهدته إليه كليوباترة، والذي أصبح له كفناً لفه في طريقه إلى العالم الآخر!

ومن يدري هل الملكة الضالة لم تصنع لهذا الأخير ما صنعته الوصيفات وملكتهن كليوباترة من خيوط القطن البيضاء في الإسكندرية. وعادت كليوباترة إلى عاصمة ملكها حزينة حائرة، ولكن حيرتها لم تطل،

فقد أوقعت في حبائلها القائد الذي حل بعد يوليوس محله في الشرق: "ماركوس أنطونيوس" أما قيصرون، ابن القائد الصريع، فقد كتب له أيضاً أن يموت قتلاً مثل أبيه، بأمر من أوكتافيوس في سنة ٣٠ قبل الميلاد، وهي السنة التي انتحر فيها أنطونيوس وانتحرت فيها كيلوباترة!

ومن يدري هل الملكة الضالة لم تصنع لهذا الأخير ما صنعته ليوليوس قيصر : قميصا ناصع البياض من القطن المصري، فكان لأنطونيوس الفاسق كفناً، كما كان من قبل لقيصر الطاغية كفناً!

مصيف المحبين

يسرح المصطافون في رمل الإسكندرية ويمرحون ويداعب بعضهم بعضاً على شاطئ البحر فهل يعلمون أنهم يجوسون بين صخور وتلال لجأ إليها من قبل أبعد المحبين صيتاً، وأعظم المحبات شهرة وجمالاً، وسحراً ودلالاً؟ ..

أنطونيوس

اقتسم القائدان الرومانيان أوكتافيوس وأنطونيوس العالم المعروف في ذلك الوقت بينهما قسمة حق وإنصاف، فكان الغرب من نصيب الأول، وكان الشرق من نصيب الآخر، وأقلعت سفن أنطونيوس ومراكبه إلى شواطئ إفريقية والشرق الأدنى لتثبيت سلطان روما في الأقطار والأمصار وفرض الجزية على المتمردين من الملوك والأمراء.

وأقام أنطونيوس في سورية وطلب إلى كليوباترة ملكة مصر أن توافيه إليها فأبحرت في أسطول صغير لم يشهد العالم أسطولاً يحاكيه بهاء وبذخاً ورونقاً، وكان ما كان من لقاء وحديث، وسهام تنطلق من عينين لم يضع الخالق في وجه أنثى أجمل منهما، ودلال جدير بربة الدلال في ذلك العصر، وغرام بدأ أمام أمواج البحر المتوسط في سورية، وانتهى أمام أمواجه في مصر!

عادت كليوباترة أدراجها إلى الإسكندرية، تاركة وراءها رجلاً صعقه جمالها وأسره حبها، فلم يطق صبراً على الفراق، وما كادت المرأة الساحرة تصل إلى العاصمة ملكها، حتى كان المحب الولهان قد تبعها إليها، وكان ذلك من شتاء سنة ٤١ إلى ٤٠ قبل الميلاد، فقضى أنطونيوس في ضيافة ملكة مصر بضعة أشهر، ارتبطا معاً بقيود لم تعد هناك قوة غير قوة الموت قادرة على إزالتها. وعندما أقبل الصيف بشمسه المحرقة وقيظه المزعج، قالت كليوباترة لأنطونيوس:

– أين تقضي الصيف أيها الحبيب!

فأجاب القائد، وقد تذكر واجبه العسكري ومهمته الرسمية:

– كان بودي أن أقضي الحياة معك فلا أفارقك لحظة واحدة، ولكن روما تنتظر من فتاها أن يضيف صفحة جديدة إلى صفحات تاريخها المجيد، فأزحف بجيشي إلى بلاد الفرس لإخضاع البقية الباقية من شعوب الشرق، وبعد ذلك فقط أعود إليك أيتها الحبيبة.

– ليكن، غير أنني أرغب في أن تختار بنفسك المكان الذي تريد أن يقام فيه القصر الصيفي الذي عزمت على تشييده في ضواحي العاصمة، لكي نأوي إليه في أيام القيظ!

وخرجت الملكة ذات يوم متنكرة في صحبة القائد، وقد تنكر أيضاً، إلى تلك الضواحي التي كان العظماء وأرباب المال يقيمون في قصورها، بعيد عن ضوضاء العاصمة وأعين الرقباء، وكانت تلك الضواحي تمتد على الشمال الشرقي من المدينة وأشهرها ضاحية نيكوبوليس التي تتخللها البساتين والحدائق وتختبئ دورها بين الأشجار الكثيفة الوارفة الظلال.

وكانت وصيفتا كليوباترة: أيراس وشرميون، تملكان معاً داراً صغيرة في تلك الضاحية، قائمة على صخور الشاطئ، شيدتها الوصيفتان بأموال سيدتهما، فكانتا تقيمان فيها يوماً أو أكثر في الأسبوع، كلما سمحت لهما كليوباترة بالتغيب، وكانت الوصيفتان تحبان شقيقين، يدعى أحدهما ماركوس والآخر سيلفيوس، ألحقهما أنطونيوس بحرسه الخاص، فعلق قلباهما

بحب الفتاتين اللتين اختارتهما حبيبة سيدهما لخدمتها وملازمتها في الليل والنهار.

وضعت أيراس وشرميون دارهما في نيكوبوليس تحت تصرف الملكة والقائد الروماني، فقضيا شهراً، بعيدين عن الناس، في عزلة تامة عن العالم، وقد أقبل كل منهما على الآخر بكليته. كان ذلك أول صيف يقضيه أنطونيوس في مصر، فأعجبته ضاحية نيكوبوليس، وراقه المنزل الصغير الذي آوى إليه مع حبيبته، وأفضى إليها برغبته في أن يقضي فيه أسابيع بل شهوراً أخرى إذا سمحت الظروف. وقالت كليوباترة:

– عندما تعود إلينا قريباً من رحلتك الموفقة أيها الحبيب، ستجد هذه الدار معدة لاستقبالك، جديرة بإقامتك فيها!

سار أنطونيوس إلى الشرق على رأس جيشه لمحاربة الفرس وغيرهم من الشعوب العاصية، وكان ذكر كليوباترة التي سحرته بحبها يملأ قلبه ويحول أحياناً دون محافظته على التوازن في ميادين القتال وساعات الخطر، فلم يوفق في تلك الرحلة العسكرية كما كان يرجو. وأخيراً أمر جيشه بالارتداد وعاد أدراجه إلى مصر. فوجد الدار على غير ما كانت عندما ودع حبيبته فيها، فإن كليوباترة عهدت في أثناء غيابه إلى كبار المهندسين في عاصمة ملكها، في هدم المنزل الصغير وتشييد قصر على أنقاضه، يكون أهلاً لسكن الضيف العظيم.

وقامت الدار الجديدة فكانت جنة فيحاء، فرشت حجرها بأفخر الرياش، وغرست في حديقتها الأزهار من كل نوع ولون، وعزلت عن المنازل القريبة بحيث أصبحت في مأمن تام من أعين المتطفلين، ونصبت في حديقتها وعلى مدخل قاعاتها التماثيل، ووصل أنطونيوس إلى الإسكندرية فقادته كليوباترة في الحال إلى القصر، فطوق أنطونيوس عنقها بذراعيه، وقال في اندفاع المحب الذي أنساه الحب أقدس واجباته وحجب عنه المخاطر المحدقة به:

– سوف أنصرف بكليتي إلى عبادتك هنا يا كليوباترة يا "سيدة الجميع".

وانغمس الحبيبان منذ ذلك اليوم في خضم الملذات، وتركا الأقدار تسوقهما إلى النهاية التي تريد، لا يدركان من حياتهما غير الساعة التي يعيشان فيها، ولا يفطنان إلى ما كان أعداؤهما يدبرونه لهما من مكايد. وفي ذلك القصر تبادل الحبيبان جميعاً الأقسام المغلظة بأن يظلا على الوفاء مقيمين، وهناك أقسمت كيلوباترة وأقسم أنطونيوس بألا يظل أحدهما على قيد الحياة إذا امتدت يد المنون قبله إلى الآخر، وهناك أعلن القائد الروماني عزمه على الزواج بكيلوباترة، بعد أن طلق زوجته الرومانية أوكتافيا، فكان إعلانه هذا بمثابة خروج على وطنه وأهله. وقد وقع ذلك كله في سنة ٣٦ قبل الميلاد، فكان بدء الصراع بين أنطونيوس حبيب كليوباترة والقابض على الشطر الشرقي من الإمبراطورية الرومانية،

وأوكتافيوس، شقيق زوجته المطلقة، وسيد الشطر الغربي من تلك الإمبراطورية.

جعل كل من الخصمين يعد العدة للمعارك القادمة، وكل منهما يعلم أن انهزامه معناه الموت المحقق، وظل أنطونيوس وكليوباترة في أثناء ذلك يأويان في الصيف إلى ذلك القصر في نيكوبوليس، كأنهما قد أدركا أن الوداع قريب وأن تنفيذ القسم الذي قطعاه على نفسيهما أوشك أن يأزف.

وفي أوائل سنة ٣٢ قبل الميلاد، أطلقت الحرب بين العدوين الرومانيين من عقالها، ووضعت كليوباترة أسطولها تحت تصرف الحبيب الذي خاصم عشيرته ووطنه من أجلها.

كان يوم ٢ من سبتمبر سنة ٣١ قبل الميلاد يوماً من أيام التاريخ المشهودة، ففيه وقعت معركة أكتيوم البحرية بين السفن الرومانية الغربية بقيادة أوكتافيوس، والسفن الرومانية الشرقية وقد انضمت إليها السفن المصرية بقيادة أنطونيوس، وأرادت كليوباترة أن تشهد المعركة بنفسها، فالتحقت سفينتها بالأسطول المحارب، ولكن – لسبب ما – دب الرعب في نفس الملكة، فأصدرت عندما حمي وطيس القتال أمرها إلى ربان السفينة بأن يدير دفتها إلى شواطئ مصر ويهرب بها من حومة الوغى!

وفي لحظات معدودات، كان الأسطول المصري كله قد ابتعد ووجهته الإسكندرية! فضاع صواب أنطونيوس، وفر من الميدان، وصعد إلى سفينة كليوباترة، تاركاً أسطوله لقمة سائغة لعدوه!

وسجل التاريخ في ذلك اليوم حادثاً من أروع حوادثه، حادث ضياع ملك كامل، وشرف عسكري كان نقياً، وسلطان لم يكن يعادله في العالم سلطان، في سبيل امرأة!

كان في وسع أنطونيوس أن يستعد للدفاع في الإسكندرية وأن يحتفظ بجزء من إمبراطوريته الواسعة، وكان في وسع كليوباترة أن تشد أزره في ذلك وتحتفظ بعرش تبوأه آباؤها وأجدادها مدة ثلاثة أجيال كاملة. ولكن الحب كان يعمي الرجل والمرأة إلى حد غفلا معه عن الحقائق والوقائع. فما بلغت بهما السفن أرض الأمان على شواطئ مصر، حتى عادا إلى الانغماس في ملذاتهما أكثر من قبل!

آثر أنطونيوس وكليوباترة قضاء أيامهما ولياليهما في القصر بدل أن ينصرفا إلى إعداد الحصون والأسوار للدفاع، وجمع القائد الروماني حوله عصبة من الشبان والشابات أطلق عليها اسم "الذين عولوا على الموت معه" وراح يبحث عن السلوى والعزاء عن انهزامه، بين ذراعي حبيبته وفي أقداح الشراب!

وقضى أنطونيوس وكليوباترة فصل الصيف في نيكوبوليس التي شهدت بزوغ الحب بين الملكة والقائد، وشهدت أيضاً غروب ذلك الحب

ونظر الشعب إلى ذلك كله نظرة ملؤها الدهشة والتساؤل، وأطلقوا على الضاحية التي شهدت فصول تلك المأساة العجيبة اسم "مصيف المحبين".

وجعلت كيلوباترة تتفنن في أقامة المآدب وطلبت من الطهاة أن يعدوا لها الأطعمة النادرة، ومن الساقين أن يجيئوا لها بألذ الخمور وأعتقها، وكانت تشرب مع الحبيب في قدح واحد، بعد أن تذيب فيه لؤلؤة من لآلئ عقدها، لكي تزيد الخمر طعماً!.

ولكن تلك الحياة الجنونية لم تدم، فإن روما كانت قد عزمت على التخلص من القائد المتمرد الخارج على إرادتها، ومن الملكة التي كان جمالها سبباً لتمرده وخروجه، وأدركت كليوباترة أنها هالكة وأن ذلك الصيف الذي تقضيه في فيكوبوليس لن يعقبه صيف آخر، فجعلت تعد لنفسها قبراً لائقاً بها. شيد ذلك القبر في معبد إيزيس الإسكندرية، وعند ما وصلت جيوش أوكتافيوس إلى مصر، حبست الملكة نفسها في القبر وسدت المنافذ التي تؤدي إليه.

وكان ما نقله إلينا التاريخ من انهزام أنطونيوس، وبلوغه خبر موت حبيبته، وانتحاره، ثم معرفته أن كليوباترة لا تزال حية في قبرها، وحمله إليها، وموته بين يديها، ثم انتحارها بلسعة الحية، ونزول الستار على الفاجعة! بر أنطونيوس وكليوباترة بالقسم فمات الاثنان ولم يطق أحدهما الحياة بعد ذهاب رفيقه.

كانت ضاحية نيكوبوليس، التي سماها سكان الإسكندرية في عهد كليوباترة "مصيف المحبين" والتي شيدت فيها الملكة قصرها بين المكان المسمى الآن "بولكلي" والمكان المسمى "سان ستفانو"، وقد مرت الأجيال والمصطافون مازالوا يعدون على شواطئ البحر بين المكانين، والمحبون مازالوا يتبادلون الهوى أمام الأمواج والصخور. فليذكروا أن "مصيف المحبين" كان يمتد على تلك الشواطئ، وأن ربة الحسن والدلال، وسيدة النساء المحبات، كليوباترة ملكة مصر، أمضت في ذلك المكان، أطيب ساعات حياتها.

معتوقة كليوباترة

ما أكثر المآسي الصغيرة المتفرعة عن المأساة الكبرى، التي عاشتها ملكة أفقدها حبها الأعمى عرشاً كان بوسعها أن تحتفظ به، لو عرفت كيف تتحكم في قلبها.

انتحار كليوباترة

أشارت كيلوباترة إلى الإماء والعبيد بالانصراف، فسجدوا إلى الأرض في حضرتها، ثم تواروا وراء السجف والأعمدة والجدران، وبقيت ملكة مصر الفاتنة مع وصيفتها المعتوقة سيدونيا، في القاعة الواسعة الأرجاء، وقالت كليوباترة:

– لقد مللت الانتظار يا سيدونيا، وضاق صدري ولم أعد قادرة على الاحتفاظ بالسر الذي اكتمه عن الجميع!

فقبلت الفتاة يد مولاتها ومالت برأسها على ركبة كليوباترة وقالت:

– أي سر تعنين أيتها الملكة السعيدة؟ أتسمحين لهذه الأمة الطائعة، والخادمة الأمينة، المدينة لك بالحياة والحرية، بأن تستطلع مكنونات صدرك وتخفف إن استطاعت من كآبتك؟

– إنني أحبك كثيراً يا سيدونيا ولا أخالك تشكين في عطفي. فقد أطلقت حريتك، وحطمت قيود الذل والعبودية التي ورثتها عن أبيك وأمك. فأصبحت منذ سنة كاملة معتوقة حرة طليقة. شأنك في هذا القصر وفي هذا البلد شأن الأحرار لا شأن الإماء والعبيد. وقد رغبت إليك في اختيار الرجل الذي تريدينه زوجاً لك، فإن وقع اختيارك على أحد الجنود أو على رجل من رجال القصر فهو لك وأنت له، وأن وقع اختيارك على أحد العبيد فأنني أعتقه كما أعتقتك ويصبح لك وتصبحين له.

– نعم يا مولاتي، هذا ما سمعته منك مراراً، وقد أفضيت إليك بأمنيتي منذ أيام وقلت لك أنني أختار النوتي "هامو" زوجاً لي.

– إن "هامو" عبد أسود أرسله إلي أحد أمراء الأحباش هدية من لدن زوجته، فاستخدمته في السفن الحربية الرأسية في ميناء الإسكندرية وقد أجبتك إلى رغبتك، وحققت أمنيتك، فمنحت هامو الحرية وأصبح منذ أيام معتوقاً مثلك. فهل أنت سعيدة يا عزيزتي؟

– إنني سعيدة يا مولاتي، ولكن سعادتي لن تكون كاملة إلا إذا رأيتك أنت سعيدة فرحة راضية!

فأمسكت كيلوباترة عن الجواب، ووضعت يدها على رأس سيدونيا المعتوقة المخلصة المحبوبة، فرفعت الفتاة نظرها، ورأت دمعتين تنحدران من مقلتي الملكة على خديها الورديين. فقالت بصوت مضطرب:

– مولاتي! ما بك؟

– تذكرين يا سيدونيا ذلك القائد الروماني الشاب، الذي رافقني إلى الإسكندرية، ثم رحل عنا على رأس جيشه اللجب لفتح الأمصار وإخضاع الممالك وضم بلاد مادي وفارس إلى أملاك الرومانيين؟

– ماركوس أنطونيوس، ومن منا لا يذكره يا مولاتي، ونحن نعلم أنه أصاب حظوة لديك، وأن قلبك يخفق بحبه، ويطير شعاعاً عليه، وأنك ترقبين عودته على أحر من الجمر!

– لقد طالت غيبته يا سيدونيا، واعلمي ما لا يعلمه الآن سواي في هذا القصر، أن ماركوس أنطونيوس سيهجر زوجته الرومانية أوكتافيا ويحلني محلها، وسوف نجلس معاً على عرش واحد، يخضع لصولجانه الشرق والغرب!

– أرجو أن تحقق الآلهة آمالك يا مولاتي!

– ولكن أنطونيوس أبطأ في العودة، وهذا ما يثير شجوني ويبعث القلق إلى نفسي، إنني أخاف عليه عاديات الزمان ومكايد الإنسان. فارفعي معي أكف الصلاة للآلهة، ولنضرع إليها طالبين منها أن تحرس أنطونيوس في غزواته وحروبه، وفي كره وفره، وفي ذهابه وأوبته!

وسجدت كليوباترة وسجدت سيدونيا، وارتفع صوت المرأتين في سكون الليل صاعداً إلى مقر الآلهة مسيرة الأقدار، والقابضة على مصير الأخيار والأشرار!

هجر أنطونيوس زوجته أوكتافيا وتزوج كليوباترة، ولكنه لم يجرؤ على المجاهرة بذلك، وإعلان نبأ هذا الزواج في روما، خوفاً من هياج الرأي العام عليه، وانصراف الأنصار والأعوان عنه، وكان خصمه وغريمه أوكتافيوس، شقيق زوجته أوكتافيا، يسعى إلى هلاكه بجميع الوسائل المتوافرة لديه، انتقاماً لأخته من ناحية، وطمعاً في الاستئثار بالسلطة دون أنطونيوس على المجاهرة بأمر زواجه، والاعتراف أمام الرومانيين بأنه هجر زوجته الرومانية الأصلية لكي يحل محلها الملكة الإغريقية المصرية. وسعت كليوباترة من

ناحيتها إلى حمل أنطونيوس على إعلان خبر زواجهما، لكي تبرر موقفها أمام رعيتها، فاضطر القائد الشاب في النهاية إلى الخضوع لإحكام الضرورة القاضية.

وفي سنة ٣٦ قبل الميلاد، أذاع أنطونيوس في طول البلاد وعرضها من أطراف مصر إلى تخوم الدولة الرومانية، أنه أصبح زوجاً لكليوباترة ملكة مصر، وأن كليوباترة حلت بجواره محل زوجته المهجورة الرومانية أوكتافيا، ومنذ ذلك الوقت جعل الرومانيون ينظرون إليه بعين الحذر والغدر، نظرهم إلى روماني عاق خائر النفس، ويلتفون حول أوكتافيوس الروماني البار المخلص الأمين.

وأعمى الحب بصر أنطونيوس وبصيرته، فلم يدرك الخطر الداهم الذي بدأ يحدق به منذ تلك الساعة التي أذاع فيها ما أذاعه، وبعد مدة قصيرة، أمام الجموع المحتشدة في ملعب الإسكندرية، نادى ماركوس أنطونيوس الروماني بكليوباترة ملكة على مصر وقبرص وإفريقية وسورية، وأشرك معها في الملك الفتى قيصرون ابنها من يوليوس قيصر.

وكان قد استولد الملكة طفلين، فنادى بأحدهما ملكاً على أرمينيا وبارتيا ومادي، وبالآخر ملكاً على فينيقية وليبيا وقيلقيا؛ فكان جواب روما أن انعقد مجلس الشيوخ فيها، وأعلن على الملأ أن ماركوس أنطونيوس "خائن للوطن"، وكان ذلك الإعلان نذيراً بالنهاية التي ختمت بها فيما بعد

حياة المحبين. وبدأ القتال بين أنطونيوس وأوكتافيوس في سنة ٣٢ قبل الميلاد..

أحيت كليوباترة حفلة زفاف رائعة، دعت إليها حاشية القصر والأسر الشريفة في الإسكندرية، وأعلنت فيها زواج وصيفتها المحبوبة، سيدونيا الجميلة، وقدمت للمدعوين الرجل الذي وقع عليه اختيار الفتاة، هامو العبد الحبشي، الذي رفعته الملكة بإرادتها السامية إلى مصاف الأحرار والنبلاء.

وأراد أنطونيوس من ناحيته أن يكافئ معتوقة حبيبته على إخلاصها وتفانيها في خدمة كليوباترة، فعين زوجها الأسود قائداً لإحدى السفن الحربية الرومانية التي جاء بها إلى مصر، وكان أنطونيوس يدعو زوج سيدونيا الحبشي إلى كل حفلة يقيمها في القصر. وكانت كليوباترة لا تبدو على سريرها أمام الناس، ولا تأوي إلى خدرها طلباً للراحة إلا والمعتوقة الجميلة بجانبها.

وكانت سيدونيا واسعة الحيلة، تميل دائماً إلى المراح، وتبتكر لسيدتها وسائل اللهو والتسلية في ساعات الملل والضجر، أو تبحث لها عن منافذ للخروج من المآزق الصعبة، في الأزمات النفيسة أو السياسية قالت لها كليوباترة ذات يوم:

– حدث أمس يا سيدونيا أن دعاني أنطونيوس إلى نزهة على شاطئ البحر في حديقة القصر؛ فلبيت الدعوة وطفنا معاً في أرجاء الحديقة.

وجلسنا على ذلك النتوء البارز فوق المياه، والذي تتكسر عليه الأمواج المزبدة. وهناك كاشفني أنطونيوس بأمر فوجئت به. كاشفني بالشكوك التي تخالج صدره من ناحيتي، فهو يعتقد أنني أرغب في التخلص منه بأن أدس له السم في الطعام والشراب. إن أعداءنا يا سيدونيا يحاولون بجميع الوسائل والطرق أن يفرقوا بيني وبين زوجي، وأخشى أن تدب بيننا العقارب، وأن ينتهي حبنا الجميل بفاجعة تنهار معها سعادتنا.

– ينبغي يا مولاتي أن تنظري إلى الحقائق، وأن تكوني دائماً على حذر، فإن روما تعرف كيف تنتقم من الذين يسيئون إليها. وقد أساء إليها أنطونيوس إساءة عظيمة، ولكن مصيرك مرتبط الآن بمصيره، ولا بد من الاحتفاظ به، وتغذية الحب في صدره، وحمله على أن يضع فيك ثقته العمياء بلا قيد ولا شرط.

– وكيف السبيل إلى ذلك؟ إن ما أفضى به إلي أنطونيوس أمس جعلني أفطن إلى أمر لم أفطن إليه من قبل. أما رأيت أنه، في الولائم والحفلات، يتجنب دائماً أن يمد يده إلى لون من الأطعمة قبل أن أسبقه إليه، ولا يتناول شراباً إلا من الكأس التي أشرب فيها؟ إنه يخشى السم ويخيل إليه أنه في كل طعام وفي كل شراب.

– مولاتي.. سوف نلقي غداً على زوجك الروماني درساً يعلم منه أن أشد النساء غباء في استطاعتها أن تخدع أذكي الرجال وأبعدهم إدراكاً...

جلس أنطونيوس كعادته كل يوم، مع زوجته كليوباترة على الشرفة الفسيحة المطلة على البحر، أمام مخدع الملكة، وحمل العبيد إليهما ألوان الطعام وأقداح الشراب، فأكلا وشربا، وكانت كليوباترة تتناول ألوان الطعام الواحد بعد الآخر، فتأكل منها وتقدم لزوجها، ثم تتناول الأقداح فتشرب وتسقي أنطونيوس، وبعد أن سكر الاثنان، أخذت كليوباترة بيمينها كأسا تفيض بالخمر، وتجرعت نصفها دفعة واحدة، ثم نثرت فيها أوراق وردة حمراء كانت تحملها في شعرها، وقدمت الكأس للحبيب العزيز، فتناول أنطونيوس الكأس من يدها ورفعها إلى فمه وهم بشربها. فصاحت كليوباترة ممسكة بيده:

– لا تشرب يا أنطونيوس! أعد إلي هذه الكأس.

فأعادها أنطونيوس، وقد ارتسمت على وجهه أمارات الدهشة، ونظر إلى كليوباترة وهو لا يدرك معنى ما تفعل.. وقالت الملكة:

– سيدونيا... خذي.

فأخذت سيدونيا الكأس من يد مولاتها، ونادت أحد العبيد وأمرته باسم الملكة أن يشرب

أطاع الرجل صاغراً أمر الملكة كليوباترة، وبعد دقائق معدودة، سقط على الأرض وفارقت روحه الجسد؛ فطوقت كليوباترة عنق أنطونيوس بذراعيها وقالت وهي تغمر رأسه بالقبل:

- أيها المجنون الأعمى! لو أردت التخلص منك ما عدمت حيلة لدس السم لك في الطعام والشراب ولو بوردة كهذه.

فأدرك أنطونيوس أن الوردة مسمومة، وأن زوجته أرادت أن تلقي عليه درساً وتبدد شكوكه بذلك الدرس، وفي اليوم التالي قالت كليوباترة لسيدونيا:

- لقد نجحت حيلتك أمس، وكان الدرس رائعاً قاسياً.

دارت رحى الحرب بين العدوين اللدودين أوكتافيوس وأنطونيوس وسعى كل منهما إلى القضاء على الآخر والاستئثار بالسلطان في الشرق والغرب، وفي ٢ من سبتمبر سنة ٣١ قبل الميلاد التقت سفن أوكتافيوس بسفن أنطونيوس وكليوباترة في مياه "أكثيوم" على الساحل اليوناني، وبدأت المعركة، وإذا بالسفن المصرية تقلع فجأة بعيداً عن دائرة القتال، وإذا بالسفن الرومانية الموالية لأنطونيوس تتبعها وتفر في أثرها، وإذا بذلك اليوم المشهود يفتح أمام أوكتافيوس باب المجد على مصراعيه، وإذا بكليوباترة، بين يوم وليلة، تنقلب على زوجها أنطونيوس، وتقيم في سبيله العراقيل وتنصب له المكايد.

كانت تلك اليونانية الساحرة الفاتنة التي تبوأت عرش مصر، قد خدعت من قبل يوليوس قيصر العظيم وأوقعته في حبها ثم خانت عهده، وخدعت بعده أنطونيوس وأوقعته في حبها ثم خانت عهده أيضاً، وجعلت تفكر بعد أن ثبت لها أن أوكتافيوس منتصر وأنطونيوس منهزم بلا شك

أمام خصمه، في إغواء هذا الخصم والتسلط عليه، وأدرك أنطونيوس الحقيقة المرة، ولكن بعد فوات الوقت..

مرت سنة كاملة منذ اليوم الذي انهزمت فيه سفن كليوباترة وأنطونيوس بلا قتال في أكتيوم، والقائد الروماني يتقلب على نيران الحب والغيرة والغيظ والأسى، وكيلوباترة تسحره بألفاظها تارة وتزجره تارة أخرى. وفي الأول من أغسطس سنة ٣٠ قبل الميلاد وصل جيش أوكتافيوس إلى أبواب الإسكندرية وخرج جيش أنطونيوس للقائه. لا بد من القتال، وستكون معركة فاصلة، فإما أن ينهزم الرومانيون بقيادة أوكتافيوس فيخلو الجو لأنطونيوس. وإما أن ينتصر أوكتافيوس فيخضع له الشرق والغرب، ويقضي على أنطونيوس وزوجته.

– سيدونيا.. تعالي.. لا أريد أن يلحق بي سواك يا صديقتي المحبوبة. هيا بنا إلى ذلك الضريح المظلم.

– وهامو يا مولاتي؟ ألا تسمحين له بالمجيء معنا؟

– ليأت.. وليسرع.

خرجت كيلوباترة ومعها معتوقتها سيدونيا وهامو الحبشي الأسود، من القصر الملكي في الإسكندرية في تلك الليلة الليلاء، تحت ستار الظلام الحالك، ولجئوا إلى الأقبية السوداء التي تضم أضرحة البطالسة آباء كليوباترة وأجدادها، وسألت الملكة معتوقها هامو:

– هل نفذت أوامري كما أصدرتها إليك؟

– نعم يا مولاتي. إن قواد الجيش وقواد السفن لن يطيعوا أنطونيوس ولن يلبوا دعوته إلى القتال...

– إنني خائفة يا هامو، خائفة يا سيدونيا، وأخشى أن يلحق بي أنطونيوس إلى هنا، وينزل بي العقاب الذي أستحقه، فيا له من حب ينتهي اليوم بهذه الخاتمة المفجعة.

قضت كيلوباترة ليلتها بين أضرحة الملوك في تلك الأقبية المظلمة، وتمرد الجيش، وتمرد الأسطول، وأدرك ماركوس أنطونيوس أن الدائرة قد دارت عليه فطعن نفسه بسيفه ومات منتحراً.

ودخل أوكتافيوس مدينة الإسكندرية ظافراً منصوراً، وأعلن أنه سيجر وراء مركبته ملكة مصر الحسناء مربوطة بشعرها، وأنه سيطوف بها على هذه الصورة في مدينة روما العظمى، لكن كيلوباترة لم تمكنه نفسها، فماتت من لسعة حية حملها إليه فلاح مصري بالتواطؤ مع المعتوق هامو الحبشي، وزوجته سيدونيا.

وفي اليوم الذي ماتت فيه كليوباترة، عثر جنود أوكتافيوس، وهم يفتشون القصور والمنازل والأقبية، على جثتين متعانقتين، في ضريح البطالسة، جثة العبد الحبشي المعتوق، هامو القائد البحري، وجثة الجارية المعتوقة سيدونيا الجميلة، واستولى أوكتافيوس على كنوز البطالسة، وأصبحت مصر منذ ذلك اليوم ولاية رومانية على رأسها حاكم روماني.

عاشقة الأمواج

كانت أمواج البحر مرتعاً لها، لا يجاريها أحد في شق عبابها، ثم شاءت الأقدار أن تصبح الأمواج لها كفناً!

ميلونا

سقط يوليوس قيصر العظيم مضرجاً بدمه تحت خناجر القتلة الذين هاجموه كالذئاب المفترسة في مجلس الشيوخ الروماني بقيادة بروتوس، وكاسيوس، في سنة ٤٤ قبل الميلاد، فتولى الحكم بعده ثلاثة رجال هم:

أوكتافيوس، وماركوس أنطونيوس، ولبيدوس أنطونيوس فزحف الثاني إلى الشرق حيث رفع أعلام الرومانيين، وعزم على متابعة السير إلى مصر، للقاء الملكة كليوباترة الجميلة الساحرة، التي كان قيصر قد فتن بها عندما هبط الإسكندرية، بعد القضاء على أعدائه ومزاحميه، وكان أنطونيوس يشك في ولاء الملكة المصرية الإغريقية، فأوفد إليها الرسل من مدينة طرسوس بسورية لتأتي إلى مركز القيادة الرومانية في تلك المدينة، وتقدم له الحساب.

وقد سافرت الملكة في موكب فخم لم يذكر التاريخ مثيلاً له في العظمة والجلال، واستطاعت إرضاء القائد الروماني الشاب الذي بدأ حديثه معها بلهجة السيد الآمر وختمه بلهجة العبد الطائع.

كان ذلك في فصل الشتاء بين سنتي ٤٢ و٤١ قبل الميلاد، وفي تلك الليلة التي جمعت بين كليوباترة وأنطونيوس طويت صفحة من صفحات التاريخ ونشرت صفحة جديدة ملأى بالروائع والفواجع. عادت كليوباترة إلى الإسكندرية ومعها القائد الروماني، وقد أمسى محباً مغرماً، وعزم منذ ذلك الوقت على الاستئثار بالملك في الشرق الروماني، وإشراك حبيبته فيه، واصطحب أنطونيوس من سورية طائفة من الحسان جعلهن في خدمة الملكة المحبوبة، وبين أولئك الحسان فتاة فينيقية يتيمة، جئ بها إلى مركز القائد الروماني مع سبايا الحرب اسمها "ميلونا".

عرفت ميلونا بين رفيقاتها، بأنها تحسن الصيد والقنص والسباحة، وتمارس أعمال الفروسية بأنواعها، وكانت إلى ذلك لا تجهل فنون البهرجة وخدمة ربات القصور، وقد عرفت كيف تتقرب من سيدة قصر الإسكندرية، فلم يكد ينقضي شهر واحد على إقامتها في مقرها الجديد، حتى آثرتها كليوباترة على بقية الخدم، وكانت تدعوها إلى ملازمتها في كل نزهة خارج المدينة وخصوصاً عندما تذهب الملكة إلى شاطئ البحر للاستحمام والجلوس على الصخور.

ذهب أنطونيوس على رأس جيش لفتح بلاد فارس ومادي، ولكنه عاد مسرعاً دون أن يكلل الفوز مسعاه، وعندما وصل إلى الإسكندرية وضمته كليوباترة بين ذراعيها بعد طول الغياب، أدرك أنه أصبح ملكاً لها فأقدم على عمل كان الخطوة الأولى نحو هلاكه، فقد طلق زوجته أوكتافيا وأعلن زواجه بملكة مصر كليوباترة الجميلة. كان ذلك في سنة ٣٦ قبل الميلاد، فلم يكد الخبر ينتهي إلى روما حتى قام أوكتافيوس يعلن من فوق المنابر، أن أنطونيوس أصبح خائناً للوطن وعدواً لروما، لكن أنطونيوس لم يعبأ بغضب قومه وثورة زميله، بل طلب إلى كليوباترة أن تقيم الأفراح في الإسكندرية، احتفالاً بالزواج الميمون؛ فبرزت المدينة في أبهى مظاهرها، ونصبت الخيام على شاطئ البحر، خارج الإسكندرية، حيث ضرب قيصر خيامه عندما هبط أرض مصر، وهو المكان الذي أطلق عليه منذ ذلك الوقت اسم "كامبو تشيزاري" أو "معسكر قيصر"

وهناك، أمام أمواج البحر المتكسرة على الصخور فوق الرمال الناعمة، جلس المدعوون حول أنطونيوس وكليوباترة يقرعون الكئوس ويشربون السلاف، ويتفرجون على مصارعة العبيد ورقص الجواري وسباق السباحين والسباحات، وبينما كان كل منهم منصرفاً إلى ملاذه، قالت كليوباترة لزوجها:

– أنظر أيها الحبيب العزيز، إن هذه الفتاة التي تخوض عباب الأمواج أمامنا، فيعجز الرجال عن اللحاق بها، لأمهر امرأة نزلت إلى البحر وعامت فوق مياهه. ألا تذكرها؟

– كلا أيتها المحبوبة المعبودة.

– ميلونا! ألا تذكر ميلونا التي جئت بها من سورية؟

– لقد نسيت اسمها، ولكنني أذكر الآن ما سمعته عنها، فقد قيل لي أن في استطاعتها البقاء تحت الماء مدة طويلة بلا عناء...

– هذا صحيح، فقد رأيت من مهارتها العجب العجاب.

وأرسلت كيلوباترة في طلب الفتاة فجاءت إلى مضرب الملكة وعليها معطف من الحرير الشفاف، يلف جسماً بديع التكوين، متناسب الأعضاء يميل إلى السمرة، فبادرها أنطونيوس:

– ألا ترغبين في الزواج يا ميلونا؟ حرام أن يبقى هذا الجمال الساحر مهملاً.

فنظرت الفتاة إلى القائد الجميل بلا خوف ولا وجل وأجابت:

– إنني أرغب في الزواج يا أنطونيوس، وحبذا لو أتاحت لي الأقدار أن أجد الزوج الجميل الذي يشبهك. ولكنني أقسمت ألا أتخذ لي بعلاً غير الرجل الذي يفوز علي في السباحة. ولم أجد بعد ذلك الرجل المنشود، وأخشى ألا أجده أبداً.

– وما حملك على هذا القسم العجيب؟

– كنت في بلادي مخطوبة لشاب سوري مثلي، كان فريد عصره في السباحة، يعوم على وجه الماء، ويشق عباب البحر فيسبق السفن، ولكنه لقي حتفه في القتال فمات مدافعاً عن أبي، الذي قتل في المعركة التي سقط فيها خطيبي، فامتزجت دماء الاثنين، وفاضت روحاهما الطاهرتان في لحظة واحدة. ومنذ ذلك الوقت بقيت وحيدة في هذا العالم، لا سند لي ولا معين. فإذا كان عندك ذلك الرجل الماهر في السباحة كما كان خطيبي، فإنني أعطيه قلبي دون أن أندم على ما فعلت ودون أن أغضب روح الحبيب الأول.

أصغى أنطونيوس إلى قصة الفتاة، ثم أفرغ كأسه في فمه للمرة العاشرة، وصاح بالضباط والجنود الواقفين حوله قائلاً:

– أليس بينكم يا أبناء روما ومصر، من يغلب هذه السورية الحسناء في السباحة فيأخذها زوجة، وينعم بما أغدقته عليها الطبيعة من سحر وجمال؟ إلى البحر يا طالبي الزواج.

وكانت ساعة عجيبة، تلك الساعة التي اندفع فيها الرجال والشبان والصبيان كالسيل المتدفق لمقابلة الأمواج، من شاطئ "كامبو تشيرازي". نزل إلى البحر عشرة، وتبعهم عشرون فعشرون. ولحق بهم آخرون وآخرون. وبدا البحر كأن عشرات السفن قد تحطمت فيه، فألقت برجالها إلى اليم، ونزلت ميلونا الحسناء بين تلك الجموع السابحة، فجعلت تخترق صفوفهم وتشق الأمواج، ثم تغيب عن الأنظار تحت الماء وتبدو بعد لحظة في مكان آخر، وكل يحاول اللحاق بها على غير جدوى.

وظلت المباراة ساعات، تعب فيها من تعب فعاد إلى الشاطئ منهوك القوى، وثابر فيها من ثابر فغرق، أو أشرف على الغرق، فأنقذته ميلونا نفسها من الهلاك، وأخيراً أصدرت كليوباترة أمرها بانتهاء المباراة، وأعلنت فوز ميلونا السباحة التي لا تجارى.

مرت الأعوام وأنطونيوس وكليوباترة ينعمان بالحب ويرتشفان كئوسه، وميلونا تبحث عن الزوج المنشود فلا تجده.

وكانت روما تعد العدة للقضاء على أنطونيوس الخائن في نظر الرومانيين أجمعين، فدارت رحى القتال بين الفريقين براً وبحراً، حتى دارت الدائرة على أنطونيوس إذ تخلت عنه كيلوباترة بأن أمرت سفن مصر

بالعودة إلى الإسكندرية قبل بدء المعركة، فتبعها أنطونيوس وأصبح أوكتافيوس سيد الموقف بلا قتال.

حمل أوكتافيوس على سورية ففتحها، ودخل إلى مصر حيث زحف على الإسكندرية لمقاتلة خصمه، فالتقى الجيشان في "نيكوبوليس" وهي ضاحية من ضواحي الإسكندرية بين المكانين اللذين تقوم فيهما الآن ضاحيتا "بولكلي" و"سان ستيفانو"، وفي تلك المعركة سجل النصر النهائي لأوكتافيوس. فقد عصى رجال أنطونيوس طاعة قائدهم ويقال، أنهم فعلوا ذلك بأمر خفي من كليوباترة، التي غرتها وعود أوكتافيوس فخانت حبيبها ظناً منها أنها ستحتفظ بعرشها من هذا السبيل.

في الأول من أغسطس سنة ٣٠ قبل الميلاد، دخل أوكتافيوس مدينة الإسكندرية فاتحاً، بعد أن يئس أنطونيوس من النصر، فانتحر مفضلاً الموت على الأسر، كانت كليوباترة ترجو النجاة، لكنها أدركت في النهاية أن أوكتافيوس لن يصفح عنها بل سيأخذها إلى روما ذليلة مهانة فانتحرت كحبيبها.

وأعلن أوكتافيوس بعد وفاة خصميه، أن أرض مصر أصبحت ولاية رومانية، وأنه هو الوارث لكنوز البطالسة. خرجت ميلونا من قصر الملكة في ذلك اليوم المشئوم، هائمة على وجهها، واجتازت أسوار المدينة آملة أن تجد باب النجاة مفتوحاً. ولكنها عندما وصلت إلى شاطئ البحر، "كامبو تشيزاري" وجدت نفسها بين مضارب الجند، وقد نصبت في

المكان الذي نصب فيه قيصر خيامه قبل ذلك الوقت ببضعة أعوام. رآها الجنود حيرى مذعورة، تتخطى الصخور وتحاول الهرب، فوثبوا إلى ناحيتها وحاولوا اللحاق بها وهم يصيحون:

– امرأة مصرية! امرأة مصرية!

أدركت الفتاة أنها هالكة بلا شك، لو وقعت في أيدي أولئك السكارى، ففكرت في الانتحار ثم صاحت بالجند المسرعين خلفها قائلة:

– يا أبناء الذئبة الرومانية! إذا كنتم تريدون امرأة جميلة، فالحقوا بها إلى البحر، ومن يستطيع منكم أن يدركها، يفز بها؟

وألقت ميلونا بنفسها في البحر، وجعلت تخوض عباب الماء، فاستولت الحماسة على بعض الجنود، فنزلوا وراءها إلى البحر. وشهد شاطئ "كامبو تشيزاري" مباراة ثانية، كتلك التي شهدها يوم الاحتفال بزواج أنطونيوس وكليوباترة، ولكنها مباراة من نوع آخر، فقد نزلت ميلونا إلى البحر في هذه المرة وهي عازمة على ألا تعود، ولم تعد.

ذات القلبين

أحبت رجلين، وأخلصت لثلاثين، وقتلت نفسها مرتين فكان حبها أعجب حب تحدث عنه الناس

كليوباترة ملكة مصر

– أتحبينني يا فينا؟

– أحبك يا لوكوس.

– أتقسمين على يمين الإخلاص في الحب؟

– إلى النهاية.

– إذن سأرحل هادئاً مرتاح البال إلى الحروب والغزوات، واثقاً بك عالماً إنك ستفكرين في وترفعين صلواتك إلى الآلهة لكي تأخذ بيدي وتدفع عني الموت في الميادين.

قال لوكوس هذا وطبع على جبين حبيبته "فينا" قبلة حارة وانصرف من مخدعها عائداً إلى ثكنات الجيش، وبعد نصف ساعة، كان في المخدع شاب آخر، بهي الطلعة طويل القامة قوي العضلات مثل لوكوس، ودار بينه وبين الفتاة فينا الحديث الآتي:

– أتحبينني يا فينا؟

– أحبك يا لاجوس.

– أتقسمين لي يمين الإخلاص في الحب؟

– إلى النهاية.

- إذن سأرحل هادئاً مرتاح البال إلى الحروب والغزوات، واثقاً بك، عالماً إنك ستفكرين في وترفعين صلواتك إلى الآلهة لكي تأخذ بيدي وتدفع عني الموت في الميادين.

قال لاجوس هذا، وطبع على جبين حبيبته "فينا" قبلة حارة مثل قبلة لوكوس، وانصرف من مخدعها عائداً إلى ثكنات الجيش.

امرأة تحب رجلين: ليس هذا ما يدعو إلى الدهشة والاستغراب، فإن التاريخ يذكر في سجلاته أكثر من حادث واحد من هذا النوع، إنما العجب كل العجب في أن تحب المرأة رجلين حباً قوياً عميقاً، يدفعها إلى التضحية في سبيل الاثنين. والعجب كل العجب في أن يكون كل من الرجلين المحبوبين عالماً بمكانة خصمه لدى المرأة، وأن يكون راضياً بذلك، متفقاً مع غريمه على أن ينتحي أحد الاثنين طائعاً مستسلماً عندما تجاهر الفتاة في حضورهما بأنها تفضل هذا على ذاك، أو ذاك على هذا..

– أتحبينني يا فينا؟

تلك كانت حالة الحبيبين المحبوبين: لوكوس الروماني، ولاجوس اليوناني، مع الفتاة فينا في قصر ملكة مصر كليوباترة.

من "فينا" المثيرة ذلك الحب المزدوج، وصاحبة القلب المشطور إلى شطرين؟.. هي فتاة مجهولة الأصل، لم يعرف أحد من أمرها شيئاً، لأن الرجل الذي كان مطلعاً على سر حياتها مات في القصر فجأة، وقيل على

إثر موته أن يداً أثيمة دست له السم في الطعام، وأن تلك اليد هي يد الفتاة "فينا" نفسها لأنها كانت تريد التخلص من سيطرته عليها، أما الرجل فاسمه "عمرو" وهو عربي جاء مصر بعد دخول يوليوس قيصر إلى الإسكندرية وجلوس كليوباترة على عرش البطالة. وكانت الفتاة "فينا" تصحبه وهي في العاشرة من عمرها، رأتها كليوباترة فأحبتها وأخذتها وصيفة ونجية، وكانت الوصائف الأخر في القصر يتهامسن فيما بينهن قائلات:

– هذه الفتاة هي أخت الملكة، فإن أباها بطليموس كان يحب امرأة عربية، وقد استولدها هذه الفتاة ثم قتلها وأرسل الطفلة مع أحد المقربين إليه وأعطاه مبلغاً من المال، قائلاً له أن يرحل عن مصر ولا يعود إليها إلا بعد موت الملك. فعاد عمرو مع الفتاة ابنة بطليموس بعد أن آل العرش إلى كليوباترة!..

هذا ما كانت الوصائف يتهامسن به في القصر، وقد بلغت هذه الإشاعات مسامع الملكة فثار ثائرها، وغضبت على وصائفها، وساءها أن تتناقل الألسنة خبراً مثل هذا وأرادت أن تكذبه علناً، فأغدقت نعمها على الفتاة الغريبة اليتيمة، وقدمتها لماركوس أنطونيوس حبيبها الروماني المتيم، قائلة له: إنها ابنة قائد من قواد الجيش في عهد أبيها، وأنها تحبها حباً جماً وتعاملها في القصر معاملة الأخت لأختها.

وكانت الفتاة "فينا" غريبة الأطوار، غريبة الأخلاق، غريبة الأعمال، يخيل إلى من يعاشرها وجالسها أنها مزيج من التناقضات، أو أنها مكونة من

شخصين شاءت الطبيعة أن تجعل منهما شخصاً واحداً. كان في استطاعة فينا أن تضحك وتبكي في آن واحد، وأن تبدو في لحظة واحدة هادئة هائجة، راضية ناقمة، نائمة مستيقظة! وتلك الظواهر الغريبة الشاذة كانت تحمل رجال الحاشية الملكية ونساء القصر على الاعتقاد بأن الفتاة المقربة من الملكة ليست امرأة كبقية النساء، وأن للآلهة المسيطرة على مقدرات البشر يداً في تكوينها!

وكان أغرب تلك الظواهر الداعية إلى الدهشة والتساؤل، ميل الفتاة "فينا" إلى رجلين وشطر قلبها شطرين، فإنها كانت تحب "لوكوس" الضابط الروماني في حرس كليوباترة، وكانت تحب "لاجوس" الضابط اليوناني في فرقة "فرسان الموت"، وكانت تجاهر أمام الاثنين بأنها تحب كلاً منهما حباً خالصاً أكيداً، وأنها لا تفرق ولا تستطيع أن تفرق بين الواحد والآخر!

وكانت الملكة كليوباترة، وهي المجربة، والمطلعة العليمة بالأسرار، أما كان الناس يعتقدون أن للآلهة يداً في تكوين الفتاة الحسناء المجهولة الأصل؟ ومضت أسابيع أخرى، وتماثلت "فينا" للشفاء دون أن يعود قلبها إلى الخفقان. وحمل الرسل أخباراً سارة عن فوز "فرسان الموت" في تأديب القبائل العاصية وإعادتها إلى حظيرة الطاعة.

وكانت هذه الأخبار كالأخبار السابقة ممزوجة بالأسى، فإن فرقة الفرسان فقدت فريقاً من رجالها الأشداء، وكان الضابط لاجوس بين القتلى الذين حمل الرسل خبر مصرعهم في ساحة الشرف!.. علمت "فينا"

بما حل بحبيبها الآخر، فلم تطق صبراً على هذه الكارثة وتناولت خنجرها الذهبي المعهود، وأغمدت نصله في صدرها _ناحية اليمين _ وخرت على سريرها غارقة في بحر من الدماء! كانت الطعنة الثانية هي القاضية، فقد عجز أطباء القصر عن إعادة الحياة إلى جسم الفتاة العاشقة، فبكتها الملكة كليوباترة، وأمرت بأن تدفن في حدائق القصر تحت شرفة مولاتها، وأن تزرع الأزهار على ضريحها!

ولكن الملكة أرادت أن تحتفظ بأثر من أثار الفتاة التي قتلت نفسها مرتين في سبيل حبها المزدوج؛ فطلبت من الأطباء أن ينتزعوا قلب "فينا" من صدرها، وأن يضعوه في إناء زجاجي ويرسلوه إلى كليوباترة للاحتفاظ به في حجرتها التي كانت تذوق فيها مع أنطونيوس ألذ ساعات مرت بها في حياتها، وأجيبت الملكة إلى طلبها، ومزق مبضع الأطباء صدر الفتاة!

ووقفت الأطباء مذهولين دهشين مذعورين أمام المنظر الذي وقعت عليه عيونهم ولمسته أيديهم، فقد وجدوا في صدر الفتاة قلبين! وجدوا قلباً إلى اليسار! ووجدوا قلباً آخر إلى اليمين!

كانت الفتاة فينا إذن ذات قلبين، وكانت ذات حبين، وكانت ذات شخصيتين متباينتين أفرغتا في جسم واحد! إذن فهي امرأتان في امرأة، وكان غرامها أعجب غرام عرفه التاريخ؛ فقد خفق قلبها الأيسر بحب الضابط لوكوس الروماني، وخفق قلبها الأيمن بحب لاجوس "الضابط

اليوناني" وقتلت نفسها مرتين بأن مزقت قلبها الذي أحب لوكوس بعد موته، ومزقت قلبها الذي أحب لاجوس بعد موته أيضاً.

وشاهد سكان القصر الملكي، في وقت من الأوقات، أعجب حب عرفوه: حب الفتاة "فينا" المجهولة الأصل، وظهورها أمام الناس متأبطة ذراعي رجلين وهما في الواقع صديقان وخصمان في آن واحد! تمردت فرقة من الجيش الروماني الذي تبع ماركوس أنطونيوس إلى مصر وأقام فيها مع القائد الحبيب، فزحف حرس الملكة على العصاة لتأديبهم وذهب الضابط لوكوس إلى الميدان، وتمردت القبائل على الحدود، فزحفت فرقة "فرسان الموت" على العصاة لتأديبهم وذهب الضابط لاجوس إلى الميدان، وعكفت الفتاة فينا على الصلاة، وحبست نفسها في حجرتها وجعلت تضرع إلى الآلهة ليلاً ونهاراً بأن تحرس الحبيبين في ساحات الوغى، وترد عنهما الأسنة والسيوف!

مضى أسبوعان ثم مضى أسبوع ثالث، وإذا بالرسل تعود إلى القصر حاملة أخباراً سارة عن فوز الحرس في خنق عصيان الرومانيين وإعادتهم إلى حظيرة الطاعة! لكن تلك الأخبار كانت ممزوجة بالأسى، فإن فرقة الحرس فقدت فريقاً من رجالها الأشداء، وكان الضابط لوكوس بين القتلى الذين حمل الرسل خبر مصرعهم في ساحة الشرف!

علمت فينا بما حل بحبيبها، فلم تطق صبراً على هذه الكارثة وتناولت خنجرها الذهبي الصغير، وهو هدية من الملكة كليوباترة،

وأغمدت نصله في صدرها، فسقطت على الأرض والدم يسيل من جرحها، بل من قلبها..

فإن الفتاة الوالهة طعنت نفسها بذلك الخنجر الذهبي ناحية اليسار من صدرها المرمري، فمزق النصل الحاد قلب فينا تمزيقاً، وتدفقت الدماء منه على بلاط الحجرة أمام تماثيل الآلهة التي لم تستجب لصلوات المسكينة!

ولكن حدث بعد ذلك ما جعل القصر كله يموج كالبحر الزاخر، وتتصاعد فيه الأصوات من كل ناحية وصوب، أصوات الدهشة وأصوات الاستغاثة وأصوات الخوف والذعر! مزق النصل قلب الفتاة ولكن الفتاة لم تمت! ووقف قلبها عن الخفقان ولكن الحياة لم تفارق ذلك الجسد البديع!، وحفظ القلبان في إناء زجاجي في حجرة الملكة كليوباترة!

وعندما انهزمت جيوش الملكة وحليفها أنطونيوس، وانتحر القائد الروماني، ودخل عدوه أوكتافيوس الإسكندرية فائزاً منصوراً، وماتت كليوباترة تلك الميتة المعروفة، وجد الروماني المنتصر أوكتافيوس، في حجرة الملكة، ذلك الإناء الزجاجي، فحمله معه إلى روما بعد أن سمع من الرواة قصة الفتاة "فينا" ذات القلبين، وذات الحبين! وكان ذلك في سنة ٣٠ قبل الميلاد!

لم يطقن صبراً على البقاء بعيدات منفيات عن وطنهن، فأضربن عن الطعام وأرغمن الإمبراطور الطاغية على إجابة طلبهن بالعودة!

الإمبراطور نيرون

نهض "بونتيوس" رسول قيصر من مقعده، بعد أن استمع لشكاية المرأة بدون أن يقاطعها وهي تخاطبه باسمها وباسم رفيقاتها، وساد القاعة صمت قصير، مزق الرسول سكونه بقوله:

– إذا كان قيصر نيرون قد أوفدني إليكن رسولاً ووسط خير يا سيرابا فذلك لأنه يعرف الصلة المتينة التي تربطني بالبلد البعيد الذي جئتني منه، فإن زوجتي كما تعلمن جميعاً مصرية من هليوبوليس، تزوجتها يوم كنت أقيم في بلادكم الجميلة، في عهد الإمبراطور السابق كلوديوس، وهي الآن تقيم معي في روما، وقد أصبحت هذه البلاد وطناً ثانياً لها، تحبه بقدر ما تحب وطنها الأول مصر، وزوجتي وأنا يؤلمنا أن تكوني يا سيرابا أنت ورفيقاتك في هذا القصر، حزينات كئيبات ناقمات.

فقاطعته المرأة قائلة:

– ولكنني يا بونتيوس بسطت لك العوامل التي سببت لنا النقمة والكآبة والحزن، ولست في حاجة إلى التكرار لكي تقتنع بعدالة ما نطلب من قيصر.

– هل لك أن تفرغي تلك المطالب في عبارات معدودة؟

– نعم: قل لقيصر إننا نريد الرحيل عن روما والعودة إلى بلادنا.

– وإذا رفض إجابتكن إلى ما تطلبن؟

– ننفذ وعيدنا ونضرب عن تناول الطعام ابتداء من صباح غد، فالحياة خارج مصر لم تبق لها في نظرنا أية قيمة. فإما أن نعود، وإما أن نموت.

– ماذا ينقصكن هنا من أسباب الراحة وعوامل التسلية واللهو.

– لا ينقصنا شيء، ولكن ما نتمتع به كله لا يساوي عندنا نفحة من نسيم مصر، وجرعة من ماء النيل! إننا نفضل الحرية في بيوتنا المتواضعة على الأسر في هذه القاعات الفخمة .

– سأحمل رغبتكن إلى قيصر، وأجيئكن برده في هذا المساء.

تسع نساء مصريات اعتصمن في قاعة من قاعات القصر الإمبراطوري بروما، وأرسلن إلى نيرون الحاكم بأمره هذا الإنذار: "إما أن تعيدنا إلى وطننا وإما أن تشاهد موتنا البطيء جوعاً، فيكون هذا وصمة عار في تاريخ ملكك!"

فمن هن؟ ومن أين لهن تلك الجرأة؟ وكيف فكرن في تلك الوسيلة المبتكرة للتأثير على قيصر والضغط على إرادته وإرغامه على إطلاق سراحهن "سيرابا" ابنة كاهن مصري اشتهر بالعلم والتقوى، ومات مقتولاً بيد جندي روماني ثمل، فكان لمصرعه رنة أسى بالإسكندرية، في سنة ٥٤ للميلاد، وحدث ما يشبه الفتنة في أسواق المدينة مما اضطر الحاكم الروماني إلى القبض على الجندي وتسليمه إلى عمال المرفأ الذين وضعوا حجراً في عنقه وألقوه في البحر بعد أن قتلوه ضرباً بالعصا.

وكان الرومانيون في ذلك الوقت حريصين على استرضاء المصريين، فتلقى الحاكم من الإمبراطور الجديد "لوسيوس دوميسيوس نيرو" الذي اشتهر باسم "نيرون" أمرًا بأن يدفع إلى أسرة الكاهن القتيل مبلغاً من المال ويرسل ابنتيه إلى روما مع بعض صديقاتهن ليقمن في جناح النساء بالقصر

الإمبراطوري مدة من الزمن، وكانت روما محط أنظار العالم، ومصر تابعة لها، وأمنية الرعايا جميعاً في أنحاء الإمبراطورية الشاسعة زيارة العاصمة والتمتع بمباهجها. وسافرت سيرابا ابنة الكاهن المصري "زرتاسن" إلى روما، ومعها أختها "فيلون" العازفة على القيثار، وخمس فتيات أخريات من بنات الإسكندرية المثقفات الجميلات، واثنتان من الجواري رفضتا البقاء في غياب الفتاتين ابنتي الكاهن.

كان نيرون لا يزال دون العشرين، ولم تكتمل في أعماق نفسه بعد تلك الميول الحيوانية، والقسوة البهيمية، والرغبة في إزهاق النفوس وسفك الدماء، مما جعل معاصريه يقولون عنه أن له "رأساً من حديد وقلباً من رصاص"

استقبل نيرون الفتيات المصريات بعبارات الترحيب وابتسامات الرضا، وأنزلهن في القصر الإمبراطوري معززات مكرمات، وخصص لهن جناحاً من ذلك القصر وأمر بأن تجاب رغباتهن أياً كانت. ومرت سنة كاملة بدون أن تشعر الفتيات بضيق أو حرمان، وكن يتساءلن: لماذا جاء بنا قيصر إلى هذه المدينة؟ ولماذا لا يسمح لنا بالعودة إلى بلادنا؟ و...؟

أسئلة لم تجد جواباً، ولغز ظل غير مفهوم! مرت الأعوام تحمل معها تغييراً في شخصية الإمبراطور، فقد تحول الشاب اللطيف المهذب المثقف، إلى وحش ظامئ للدماء، إلى إنسان ليس في صدره قلب إنسان، ولا في رأسه عقل إنسان، فهو لا يعقل لأنه مجنون ولا يشعر لأن قلبه خلو من كل

عاطفة، وكان يتفنن في تعذيب الناس ويبتكر من أساليب الإرهاب والإرهاق مالا تتفتق عنه الأدمغة المريضة.

ومما عمد إليه نيرون بالنسبة إلى المصريات التسع اللواتي أنزلهن في قصره معززات مكرمات مدة ثلاثة أعوام، أن أصدر أمره فجأة بأن تغلق عليهن أبواب الجناح الذي يقمن فيه، وتسد بالحجارة، ولا يبقى غير باب واحد يقف عنده الحراس بأسلحتهم ليمنعوا النساء من الخروج .

حبس نيرون المصريات التسع داخل الحجرات المخصصة لهن، وأمر بأن يقوم العبيد والجواري بخدمتهن، ولا يرفضن لهن طلباً، ولا يحرمن إلا شيئين اثنين، الخروج من جناحهن بالقصر، واستقبال أحد من الرجال في مخادعهن، وعبثاً حاولت الفتيات التسع أن يعرفن لماذا حكم عليهن نيرون بهذه العقوبة القاسية، أن يبقين حبيسات في قصر فاخر الرياش، لا يذهبن لزيارة أحد، ولا يأتي أحد لزيارتهن، وبعد مضي ستة شهور كاملة على بقائهن سجينات في القصر، عزمن على القيام بمحاولة يائسة للخلاص من تلك الحالة التي لا تطاق، وطلبن من نيرون أن يصغي إلى شكايتهن، ولكنه لم يزرهن بنفسه، بل أوفد إليهن صديقه ورفيقه بونتيوس، الذي يعرفنه ويعرفهن.

واستمع بونتيوس إلى سيرابا، وعاد إلى الإمبراطور يقص عليه ما سمع.

مرت سبعة أيام على الفتيات الصائمات وهن مستلقيات في مخادعهن يرفضن تناول الطعام الذي يحمله إليهن الخدم والعبيد في أطباق

من الذهب والفضة، وساءت حالتهن، وبدا على بعضهن الضعف والانهيار. وفجأة، فتح باب الجناح الذي بقي غير موصد على مصراعيه ودخل منه نيرون وخلفه لفيف من الرجال والنساء. وضحك ضحكة عالية رددها الصدى بين جدران الغرف الصامتة الهادئة. ودار في داخل تلك الغرف مشهد لم يحدث مثله في قصر ملك، فقد ركع الإمبراطور الروماني الطاغية على ركبتيه أمام النساء الصائمات وجعل يلاطفهن ويرجو منهن أن يعدلن عن الصوم ويضعن حداً لهذا الإضراب.

ووقع نظره على قيثارة "فيلون" ملقاة على الأرض فوثب إليها، وأخذها بين يديه وجعل يعزف عليها لحناً شجياً من وضعه، ويغني أنشودة من نظمه، فيها ذكر الشرق، وذكر مصر، وذكر النيل والرمال الصفراء والشمس المحرقة. وتوقف لحظة عن الغناء، وقال مخاطباً سيرابا ورفيقاتها:

– لن أسمح لكن بالعودة إلى مصر إلا متى تيسر لي الذهاب معكن إليها، وإذا كنت قد أمرت بأن تغلق عليكن الأبواب، ويحرم عليكن أن تقابلن أحداً في هذا القصر، فما ذلك إلا نزولاً على رغبة الآلهة وتنفيذاً لإرادتها، وقد جئت الآن بنفسي إليكن لأطلعكن على السر الكامن خلف هذه المعاملة التي عاملتكن بها، فاسمعن:

وأخذ نيرون قيثارته من جديد وراح يعزف ويتكلم في آن واحد:

– عدت ذات ليلة من نزهة في ضوء القمر، واستلقيت على كومة من الأزهار فوق الشرفة المطلة على حديقة القصر، وأغمضت عيني.. لم

أنم ولكنني لم أكن في حالة صحو تام.. ورأيت رؤيا.. بدت لي إيزيس، إيزيس الربة التي يعبدها المصريون ويؤمن بقدرتها الرومانيون، وقالت لي بلغة غير لغة هذا البلد، ولكنني فهمتها لأن الربة الجميلة نطقت بها.. قالت لي إيزيس: يجب أن تعد العدة للسفر إلى مصر يا نيرون، والإقامة في الإسكندرية، والتعبد في هياكلها، واصحب معك في رحلتك القادمة ابنة الكاهن زرتاسن والفتيات المصريات المقيمات معها في قصرك، واحرص على راحتهن وسلامتهن.. فلو حدث أن أصيبت واحدة منهن بأذى، فإن نقمتي ستكون عظيمة، وسأنتقم لهن منك فأنزل بك العذاب. هذا ما قالته إيزيس، وقد عولت منذ تلك الليلة على الذهاب إلى مصر، ولكنني خفت عليكن، وخشيت أن يلحق بكن أذى فأمرت بحبسكن في هذا القصر.

هذا هو السر الذي باح به نيرون، والذي أثار عند الفتيات الصائمات الضحك والسخرية، فتجرأت سيرابا وقالت:

– أمن أجل المحافظة علينا، تأمر بحبسنا؟.. أمن أجل تحقيق الرغبة التي أفضت بها إليك إيزيس المعبودة، تسيء إلى ابنة الكاهن الذي كان يخدم في هياكلها، والذي قتله جنود روما بالإسكندرية، وإلى رفيقاتها المصريات اللواتي نزلن في ضيافتك مدة ثلاثة أعوام كاملة؟

– أردت أن أصون حياتكن من الأذى.

– فألحقت بنا الأذى كله، وحرمتنا من حريتنا.

– ماذا تطلبن الآن؟

– الخروج من هذا القصر.

– سأسمح لكن بالخروج.

– والعودة إلى بلادنا.

– لا.. ستعودين إلى مصر، وستعود أخواتك أيضاً.. ولكن في رفقتي أنا، عندما يتيسر لي السفر تحقيقاً لرغبة إيزيس.

– لن نبقى يوماً واحداً هنا برغم إرادتنا.

– ولكنها إرادتي أنا!

– إرادتك لا يحسب لها حساب بالنسبة إلينا.

وصاح نيرون صيحة زئير الأسد، ووثب رافعاً قيثارته ليضرب بها المصرية التي تجرأت ورفعت صوتها في وجهه وخاطبته بتلك اللهجة ولكنه تراجع فجأة، وقد تذكر ما قالته له إيزيس يوم خاطبته وأوصته بأن يحافظ على المصريات ويدفع عنهن كل أذى. خاف الوحش أن يضرب ضربته، فتحل به فيما بعد لعنة إيزيس وتنزل عليه ضرباتها، وركع نيرون مرة أخرى هادئاً متوسلاً، ووقف رفاقه من الرجال والنساء مبهوتين!.

وراح يعرض على سيرابا أن يهب لها قصراً على أحد تلال روما لتقيم فيه مع رفيقاتها على شرط ألا يخرجن منه، فرفضت وعرض عليها البقاء في قصره على شرط ألا تتعدى بابه الخارجي مع رفيقاتها فرفضت وعرض عليها الخروج معهن إلى حيث تشاء على شرط ألا يغادرن مدينة روما. وألا يسرن في طرقاتها إلا برفقة الحراس والجنود، فرفضت، وغضب نيرون

وانصرف، وعاودت سيرابا ورفيقاتها الاعتصام في إحدى القاعات والإضراب عن تناول الطعام.

ومر يوم ثامن، ويوم تاسع، ويوم عاشر، وبلغ الإعياء مبلغه من الصائمات العنيدات، وذهبت كل التوسلات سدى، فلم يصغين لنصائح الناصحين، ولا لرجاء الراجين، ولا لوعيد المتوعدين.

وكانت سيرابا تقول لكل من جاء يخاطبها طالباً منها الكف عن الإضراب:

– لن نكف عنه إلا إذا تقررت عودتنا إلى وطننا، وإلا فإننا سنموت من الجوع هنا، وتحل بالطاغية نقمة الربة إيزيس، التي ستنتقم لنا منه تنفيذاً لما قالته يوم تراءت له على شرفة القصر.

وخاف نيرون أن يحدث ما هددت به الفتاة المصرية، واستولت عليه الحيرة أمام الحملان التي تنمرت. وأدركت سيرابا ما يدور في خلد نيرون، وما يتلاطم في صدره من مخاوف، فعولت على استغلال الظروف واغتنام الفرصة، وتحطيم السلاسل الذهبية التي قيد بها الطاغية حريتها وحرية صويحباتها، والانطلاق من ذلك السجن البراق إلى جو لا تحده جدران ولا تسد منافذه أبواب.

ووهن نيرون أمام ذلك العناد، واقتنع بأن الوسيلة الوحيدة لتجنب غضب إيزيس، والوقاية من انتقامها، هي صيانة أولئك الفتيات والمحافظة

على سلامتهن، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا بإعادة حريتهن إليهن، وإعادتهن إلى وطنهن، على أن يلحق الإمبراطور بهن في أقرب فرصة، لكي تتحقق الرؤيا.. ووضع نيرون سفينة تحت تصرف الصائمات، فنقلن إليها، ولم يذقن طعاماً إلا بعد أن أقلعت السفينة بهن إلى الإسكندرية، وكان عليها حراس وأطباء وخدم وعميد ظلوا جميعاً في مصر تحت تصرف سيرابا وأختها والفتيات الأخريات، اللواتي قطع نيرون عهداً على نفسه بأن ينفق عليهن من بيت المال، وأن يوافيهن في مصر عندما يستطيع إلى السفر سبيلاً!

استعادت الفتيات حريتهن، وعشن في هناء وسعادة في أرض وطنهن، وتمتعن بضعة أعوام بما كان نيرون يغدقه عليهن من عطاء سخي لا يقف عند حد.

ومرت أعوام أخرى، ونيرون لم يستطع السفر لتحقيق رغبة إيزيس، وفي يوم ما بلغه خبر من الإسكندرية سبب له الحزن وبعث في نفسه الخوف، فقد حمل إليه رسول من الحاكم الروماني نبأ مصرع "سيرابا" ابنة الكاهن زرتاسن بيد جندي روماني، مثل أبيها في أحد شوارع الإسكندرية، وقد سلم القاتل إلى الشعب فقتله وألقى جثته في البحر، ووجم نيرون، لقد أصيبت سيرابا بأذى قبل أن يتمكن الإمبراطور من القيام برحلته إلى مصر، نزولاً على إرادة إيزيس، فهل تتحقق الرؤيا!

لقد تحققت، فبعد أسبوعٍ واحد من وصول الخبر إلى روما، سقط قيصر قتيلاً بخناجر المتآمرين. وكان ذلك في سنة ١٨ للميلاد، وكان نيرون في الحادية والثلاثين من العمر، قضى منها أربعة عشر عاماً على عرش الإمبراطورية.

التنكيت القَاتِل

إذا كان التنكيت يروِح عن النفس ويدخل إليها السرور ويحملها على المرح، فإنه قد يؤدي أحياناً إلى عواقب وخيمة. وهذه قصة رجل قتله التنكيت من الضحك.

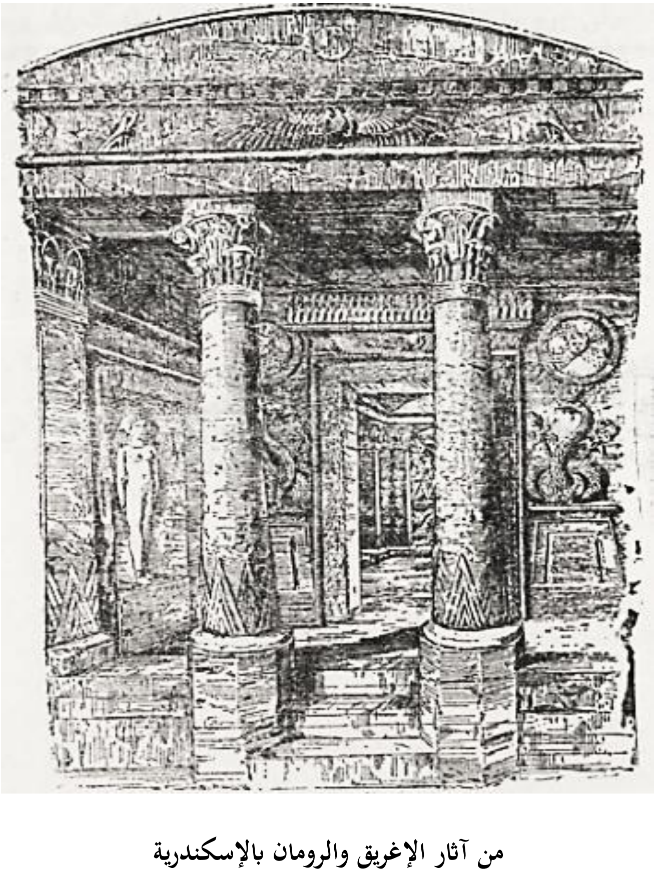

من آثار الإغريق والرومان بالإسكندرية

التفتت أونيسيا الحسناء إلى زبانية قيصر الذين كانوا يسوقونها أمامهم، مع رفيقها هليوس، وسألتهم:

– ظننت أنكم تقودوننا إلى السجن، فإذا بكم تدخلوننا قصراً يحاكي قصور الإمبراطور في روما، وقصور البطالسة في الإسكندرية.

فأجابها أحدهم:

– إنك سجينة القائد فاتينيوس أيتها الحسناء، وقد أراد الإمبراطور تيبيريوس أن يكون السجن آهلاً للسجين والسجان معاً، فأمر بإرسالك إلى هذا القصر الذي شيده في هذه الجزيرة لقضاء وقت الراحة والسرور فيه..

وذهب الجنود بالفتاة ورفيقها القزم هليوس، إلى الجناح الذي أعد لهما في ذلك القصر، القائم فوق صخر شاهق الارتفاع، يشرف على البحر وعلى مناظر جزيرة كابري الساحرة. شيد الإمبراطور تيبيريوس ذلك القصر وجعله مسرحاً لملذاته فكان يقضي فيه الأيام والليالي، بين لفيف من أصدقائه ورفاقه، وعشرات من الغيد الحسان، اللواتي يحملهن إليه رسله وقواده من أطراف الإمبراطورية الواسعة.

وعندما استولى عليه الضجر وانتابه الملل من السلطة والصولجان، هجر روما وضجيجها، وترك مقاليد الحكم أمانة في أيدي أعوانه، وانصرف إلى الانغماس في غمرة الملذات، في قصر كابري حيث قضى السنوات

الخمس الأخيرة من سنى ملكه، وقد وقعت الحادثة التي نحن في صددها في بحر هذه السنوات الخمس.

جلس تيبيريوس كلوديوس نيرو على عرش روما من سنة ١٤ إلى سنة ٣٧ بعد الميلاد، وتوفي في ١٦ من مارس من تلك السنة في جزيرة كابري الجميلة، وكانت مصر في عهده ولاية رومانية. ضمها الإمبراطور أوغسطس إلى أملاك روما بعد موت كليوباترة. وكان تيبيريوس في حكمه وإدارة شئون ممتلكات عرشه على جانب من العدالة والإنصاف؛ فقد بلغه مرة أن حاكم مصر إميليوس ريكتوس يضطهد السكان ويرهقهم ويطاردهم لجباية الأموال والضرائب منهم، فكتب إليه يقول:

– "أريد منك أن تجز صوف القطيع فقط لا أن تسلخ جلده!" وفي هذا الأمر ما فيه من الاعتدال، إذا قسناه بأساليب الحكم في ذلك العصر!.

وكان أشهر حكام مصر الرومانيين في ظل تيبيريوس القائد كايوس غاليوس، الذي ظل يدير شئون البلاد باسم الإمبراطور من سنة ١٦ إلى السنة ٢١ بعيد الميلاد، وقد غضب عليه تيبيريوس فأراد الحاكم أن يسترضيه فأرسل إليه الهدايا النفيسة وسرباً من النساء والعبيد والحيوانات النادرة، ولكن ذلك لم ينقذه من غضب سيده، فقد أصدر تيبيريوس أمره إلى رجال حاشيته بأن يوزعوا الهدايا والنساء والعبيد والحيوانات على من يرغب فيها من رفاقه في المسرات، فكان له ما أراد.

وكانت الفتاة "أونيسيا" والقزم "هليوس" من نصيب القائد "فاتينيوس" أقرب المقربين إلى الإمبراطور وأكثر الرومانيين انصرافاً إلى عبادة الشهوات، وأبعدهم قبحاً في خلقه وخلقه!

مرت ثلاث سنوات على المصرية الحسناء في كنف ذلك الروماني الماجن، ذاقت في خلالها العذاب أشكالاً وألواناً، وعرفت الآلام النفسية المبرحة التي لا يشعر بها إلا كل من فقد أهله وحريته وبلاده، وفي ذات يوم جلست أونيسيا على مقعد وثير، في قصر سيدها، وأرسلت في طلب هليوس، ودار بين الاثنين حديث ذو شجون، عن مصر وبحرها ونهرها وسهولها ومعابدها وأهلها ومحاسن الحياة فيها.

– هليوس، إنني أجعل ما بقى لي من العمر لقضاء يوم واحد في الإسكندرية. ما السبيل إلى الخلاص من هذه الحالة التي نحن فيها؟

– خففي عنك يا سيدتي. إنك لا تزالين في ميعة الصبا. وإنك لجميلة ساحرة. نعم لقد كان جمالك البارِع سبباً لشقائك فوقعت في مخالب فاتينيوس الثقيل السكير السمج. وقد ينقذك جمالك من مخالبه كما دفع بك إليها. وثقي أنني لن أذوق الراحة قبل أن أطمئن إلى راحتك أنت. فلست أنا غير قزم مهرج حقير. وليست حياتي بشيء يذكر بالنسبة إلى حياتك أنت. فإن جدك كان حاكم القصر في عهد كليوباترة وكان أبوك من كبار الأغنياء في الإسكندرية، ولو لم يضرب بسيفه ضابطاً رومانياً حاول الاعتداء على امرأة مصرية من بنات الشعب، ما قبض عليه الرومانيون وأعدموه، وما وقعت أنت سبية أسيرة بين أيديهم. وإنه لمن حسن حظي

أنا، أن كنت مثلك من نصيب فاتينيوس، لكي أظل بالقرب منك، أقوم بخدمتك، وأضحك الرجل ومدعويه بتهريجي ونوادري وتنكيتي.

– حقاً أنك تخفف كثيراً من جيل هذه الحياة عن منكبي يا هليوس ولولاك ما استطعت احتمال ألمي وعذابي. لقد سماك الناس هليوس تحقيراً منهم، إذ أن اسم "الشمس" هذا لا ينطبق على جسمك الهزيل ورأسك الضخم وعينيك الغائرتين وظهرك المقوس. ولكنه اسم ينطبق على روحك العالية وشعورك الفياض وقلبك الأبيض عزيزي يا ابن بلدي يا هليوس

– لقد أخطأت أمي يا أونيسيا عندما شتمت فاتينيوس وطردته من حجرتك، وقد علمت اليوم أنه أمر بإرسالنا نحن الاثنين إلى السجن، ومن يدري إلى أي سجن؟

– إنني لا أخاف السجن يا هليوس، فهو أحب إلي من قصر فاتينيوس هذا، وقد عزمت على أمر ولا أخفي عنك عزمي، أنت يا صديقي الوحيد.

– وعلى أي أمر عزمت يا صديقتي؟

– لابد أن يأتي فاتينيوس إلى السجن لرؤيتي، فهو يحبني بقدر بما أكرهه وإذا ما جاء...

– إذا ما جاء؟

– إما أن أقتله، وإما أن يقتلني.

لكن أونيسيا وهليوس لم يلقيا في أعماق سجن من سجون روما المظلمة بل أن الجنود ساقوهما إلى قصر الإمبراطور تيبيريوس في جزيرة كابري.

كان فاتينيوس قد دعي مع لفيف من رفاق المسرات إلى قضاء أيام في ذلك القصر، وأرسل الإمبراطور يقول لهم مع حامل الدعوة: "على كل منكم أن يأخذ معه المرأة التي يريد" وألح على فاتينيوس بأن يأخذ معه القزم المهرج المصري، لكي يضحك المدعوين بنوادره وحركاته وتنكيته.

وبدل أن ينفذ فاتينيوس تهديده بسجن أونيسيا ورفيقها هليوس، أرسلهما في حراسة الجند إلى كابري، وعندما استقر بهما المقام في القصر الشاهق المشرف على البحر، قال هليوس لصديقته:

– أونيسيا.. لقد فكرت فيما كنت تقولينه لي قبل مجيئنا إلى هنا من عزمك على الفتك بالرجل الذي يعذبك. فاصغي إلي واعملي بإشارتي عندما يعقد القوم مجلسهم لالتهام الطعام والإكثار من الشرب وغير ذلك مما ينصرفون إليه في مثل هذه المجالس، كوني فرحة مرحة، وكلي واشربي واضحكي.. نعم، اضحكي كثيراً واحملي فاتينيوس على الإكثار مثلك من الضحك، ودعيني أنفذ الخطة التي رسمتها، لأنني سأنقذك من أيدي هذا الرجل بدون أن تعرضي حياتك للخطر!

– كيف ذلك؟

– إنه سريع التأثر يغرق في الضحك كلما أتحفته بنادرة من نوادري وأذكر أن الطبيب فتيليوس قال لي يوما: "رويدك يا هليوس. إن سيدك ضخم الجسم كثير الشحم ضعيف القلب. فإذا ما أكثر من الضحك، بعد الإكثار من الأكل والشرب، فإن حياته ستكون في خطر".

– فهمت... فهمت..

– سيدتي.. إن هؤلاء الرومانيين يقرون لنا نحن المصريين بأننا سريعو الخاطر نحسن التنكيت. وسوف يكون التنكيت المصري مفيداً لنا في هذه المرة، فيعيد الطمأنينة إلى نفسك، وقد يعيد إليك الحرية.

بعد يومين، وصل تيبيريوس إلى كابري، ومعه المدعوون الذين وقع عليهم اختياره، وعددهم لا يتجاوز أصابع اليدين، وبينهم فاتينيوس بقامته القصيرة وبطنه المندلق وشعره الأحمر ووجهه المنقوش بالجذام وظمئه الدائم إلى الملاذ، ومنذ وصولهم إلى القصر، بدأ رفاق قيصر يستعدون للمآدب والسهر فذبح الخدم الذبائح. وأوقدوا النيران في المطابخ، وأعدوا لقيصر وصحبه المقاعد والأسرة والموائد على شرفة القصر الكبرى، أمام الصخرة التي أطلقوا عليها اسم "صخرة الموت" لأن تيبيريوس كان يأمر جنده بأن يلقوا من فوقها في البحر كل من حلت به النقمة القيصرية

كان ذلك في صيف سنة ٢٤ بعد الميلاد، وكان نسيم البحر يداعب أفنان الأشجار في حديقة القصر الغناء، ويحمل إلى أرجاء القصر نفحات من عبير الأزهار والرياحين، ثم طلع القمر فأغدق أشعته الفضية بسخاء

على ذلك المنظر البديع. ودبت الحياة شيئاً فشيئاً في الشرفة الفسيحة، وارتفعت الأصوات بالهتاف والأناشيد عندما أطل قيصر على مدعويه، ثم اختلط بهم وجلس بينهم على سريره الأرجواني.

ودعيت النساء فأقبلن واحدة واحدة، وكل منهن تحاكي البدر جمالاً والحور سحراً، وبينهن الرومانية والغالية والمصرية والسورية والفينيقية والإفريقية والإغريقية؛ فكان الإمبراطور أراد أن تجتمع في تلك الليلة، في قصره، جميع الأقطار الخاضعة لصولجانه، المؤتمرة بأمر روما، في أشخاص أبرع نسائها حسناً ودلالاً.

ودار الساقون بالكئوس والأقداح، وغاص الآكلون إلى أكواعهم في اللحوم المكدسة على الأطباق، الغارقة في بحر من الشحم والسمن، وجعلت النساء ينثرن الورد والياسمين على رءوس الرجال، ودعي العبيد إلى مضمار المصارعة فتماسكوا أزواجاً، وأمر قيصر بأن يعتق الغالبون منهم ويصبحوا أحراراً، وبأن يلقى المغلوبون إلى البحر من أعلى صخرة الموت!

ولعبت الخمر بالرؤوس، وهاجت الشهوات في النفوس، فاستحال الإمبراطور ومدعووه إلى مخلوقات ليس بينها وبين البهائم فارق. وصاح فاتينيوس:

– أين أونيسيا.. إلي يا أونيسيا.. فقد عفوت عنك إكراماً لقيصر!

وصاح تيبيريوس:

– أما قلت لك يا فاتينيوس أنك لن تقوى على فراقها، لقد أحسنت صنعاً في اختيار هذا المكان سجناً لها!

وأسرعت أونيسيا إلى الرجل وطوقت عنقه بذراعيها، وتمتمت في أذنه:

– أحبك يا فاتينيوس!

فنهض الروماني كالثور الهائج، يتمايل يميناً ويساراً، وأرسل في أرجاء المكان صيحة ذكرت أولئك القواد بصراخ الوحوش الكاسرة في ملاعب روما:

– أسمعتم؟ أسمعتم؟ قالت إنها تحبني!

فكررت أونيسيا الكلمة الساحرة:

– أحبك! نعم.. أحبك!

ثم همست قائلة:

– ألا تريد أن يسمعك هليوس طائفة من نوادره الليلة؟ إنه في انتظار...

ولكن فاتينيوس لم يدعها تتم كلامها، بل صاح موجهاً كلامه إلى الإمبراطور:

– قيصر! سنضحك الليلة كثيراً. فإن القزم المصري لعلى استعداد للتهريج والتنكيت.

ورددت جوانب القصر ودهاليزه وشرفاته صوتاً واحداً كالصدى، أرسلته تلك الصدور دفعة واحدة:

– هليوس! هليوس! هليوس!

دخل هليوس وبيده أفعى صغيرة الحجم، وقد التفت على ذراعه، وعلى رأسه غطاء صنع على صورة الهرم، وقد ارتدى ثوباً مصرياً زاهي الألوان.. وقال قيصر:

– أضحكنا يا هليوس!

وردد الجميع أيضاً:

– أضحكنا يا هليوس!

فانطلق المصري القزم بين الموائد، يصعد فوقها أو يمر تحتها، يداعب رأس هذا ويدغدغ بطن ذاك من المدعوين، والنوادر تتدفق من فمه كالسيل، فلا ينتهي القوم من الضحك لنادرة حتى يلحقها القزم بغيرها، والمدعوون يستلقون على ظهورهم الواحد بعد الآخر.

كان هليوس يكثر من التهريج ويبدع في التنكيت كلما وصل أمام فاتينيوس، على حين أن أونيسيا تصب الخمر في كأس الرجل وتسقيه بلا انقطاع، ثم تقهقه في وجهه وتردد:

– اضحك! أضحك أيها الحبيب فستنام الليلة ألذ نومة عرفتها!

وكان فاتينيوس يضحك، وفجأة بينما كان الرجل غارقاً في ضحكة أشد من سابقاتها، وقد احمر وجهه، وانتابته رعشة لم يعد قادراً معها على رفع كأسه بيده صاح هليوس قائلاً:

– أتريدون أن تروا كيف ماتت الملكة كليوباترة حبيبة أنطونيوس، من لسعة الحية.

فأجاب الجميع:

– نعم.. نعم...

وصرخ المصري قائلاً، وقد رفع الأفعى فوق رأسه وتظاهر بالوثوب على فاتينيوس:

– هكذا... هكذا... فماتت..

ولكن صرخة انبعثت من صدر فاتينيوس، وسقط الرجل على الأرض لا حراك فيه، وأحاط به الخدم والعبيد، وحملته النساء بين أيديهن، والتفت

المدعوون بعضهم إلى بعض، متسائلين مستفهمين، ونهضت أونيسيا من مكانها، وقالت بصوت متهدج:

– قيصر! لقد مات صديقك وحبيبي فاتينيوس!

وساد سكوت رهيب لكنه كان قصيراً، فقد عز على تيبيريوس قيصر أن ينغص عليه ميت _ أياً كانت صلته به _ لذة تلك الليلة الساهرة والمأدبة الفاخرة، فرفع يده وأصدر أمره:

– انقلوا جثة فاتينيوس المسكين إلى الحجرة التي كانت معدة لنومه ولينقل غداً إلى روما لدفنه فيها.

ثم خاطب الحسناء المصرية قائلاً:

– أما أنت يا امرأة، فإن بقاءك بيننا سيذكرنا دائماً بصديق وفي ورفيق أمين، ولا أريد بك شراً لأنه كان يحبك ولأنك كنت تحبينه، فاخرجي! وغداً ستبحرين في مركب من مراكبي الخاصة إلى بلادك ومعك هذا القزم الذي كان تهريجه وتنكيته الليلة سبباً لموت فاتينيوس.

وعاد قيصر إلى الجلوس على سريره، وقال:

– أيها الرفاق! لم يحدث الليلة ما يمنعنا من الاستمرار في الأكل والشرب والملاذ.

وفي اليوم التالي أقلعت من ثغر كابري سفينتان: سفينة تحمل جثة فاتينيوس إلى روما، وأخرى تحمل أونيسيا ورفيقها القزم هليوس، الذي بر بوعده فأنقذها من الأسر، وخلصها من سجانها، وأعاد إليها حريتها، ورجع بها إلى وطنها الإسكندرية دون أن يعمد في ذلك كله إلى سلاح غير سلاح التنكيت الممزوج بالتهريج.

صَديقة الشهَداء

تمردت الحسناء على أبيها، وتمسكت بعقيدتها وأخلصت لأصدقائها، فخنقها أبوها الروماني بيده

عمود ديوكلسيانوس بالإسكندرية، سمي خطأ عمود "بومبيوس" ويعرفه السكان باسم "عمود السواري"

دفع إلى العالم الفاصل بضع ورقات مضمونة في كراسة من الكرتون ومكتوبة بلغة فرنسية عقيمة وقال:

– هذه ترجمة مخطوط يبدو أن أصله مكتوب باللغة اليونانية القديمة، كما يبدو أيضاً أن الأصل كان ناقصاً أو مشوهاً أو غير واضح المعالم، لأن الترجمة متقطعة، فيها بعض الإبهام والغموض، ولكن موضوعها على كل حال يستحق الاهتمام. فهل لك أن تنقلها إلى العربية؟

وأنا أقدم للقارئ فيما يلي ترجمة تلك الترجمة الفرنسية للمخطوط اليوناني.

جاء في ترجمة المخطوط القديم:

"وكان "بوروس" يحكم الإسكندرية باسم الإمبراطور "ديوكلسيانوس قيصر" ينفذ رغبته، بهمة ونشاط المتزلفين الذين لا يأنفون من ارتكاب الجرائم إرضاء لسادتهم"

"وكانت لبوروس ابنة وحيدة تدعى "بولا" لم تتزوج بالرغم من أن السن تقدمت بها أكثر مما كان الرومانيون ينتظرون لكي يزوجوا بناتهم. وعبثاً حاول بوروس أن يجد لها بين ضباط الجيش الروماني بالإسكندرية زوجاً ترضى به"

"وكانت بولا تنظم الشعر وتعزف على القيثارة وتغني بصوت شجي الأناشيد التي تنظم أبياتها بنفسها، وكانت تنفر من عشرة الناس ولا تتصل

إلا بعدد قليل من الأشخاص الذين لا يعرف أبوها عنهم غير أنهم من المصريين البارعين في حياكة الملابس وصنع الأدوات الخوصية"

"ويرجع عطف ديوكلسيانوس على بوروس إلى عهد ثورة أخيليوس بالإسكندرية، فقد أعلن أخيليوس العصيان، وكان حاكماً لمصر كلها وأرسل ديوكلسيانوس حملة قوية لإخماد الثورة، فكان بوروس واحداً من السكان الذين ساعدوا على الفتك بأخيليوس وأنصاره"

"ولما أطلق ديوكلسيانوس أيدي جنوده في نهب المدينة وسلبها وحرق بيوتها كان بوروس أيضاً واحداً ممن عاد عليهم ذلك بفوائد كثيرة، وأصبح الرجل من كبار أغنياء الإسكندرية"

"وكافأه ديوكلسيانوس فيما بعد بتعيينه في مناصب رفيعة، حتى وصل إلى منصب حاكم الإسكندرية"

أتوقف هنا عن النقل لأقول على سبيل الإيضاح:

جلس ديوكلسيانوس على عرش روما في سنة ٢٨٤ للميلاد وأصله جندي بسيط رفعته الأقدار والمواهب على السواء إلى أعلى منصب في الإمبراطورية، وثار عليه أخيليوس في مصر وأعلن نفسه فيها ملكاً، ثم غلب على أمره سنة ٢٠٢ وفي عهد ديوكلسيانوس كانت المسيحية تغزو النفوس في الشرق والغرب على السواء فانصرف الإمبراطور إلى اضطهاد المسيحيين، وظل يضطهدهم بضعة أعوام حتى أفنى منهم آلافاً وآلافاً في

مختلف أنحاء الإمبراطورية وفي مصر على الخصوص، وقد اشتد اضطهاد ديوكلسيانوس للدين الجديد من سنة ٣٠٣ إلى سنة ٣٠٥، وهي التي تنازل فيها عن العرش، وعاش في عزلة تامة ببلدته "سالوني" بإيطاليا حيث انصرف إلى العناية بحديقته.

وفي الإسكندرية عمود أقيم فيها لتخليد ذكرى ديوكلسيانوس، أقامه أحد حكام المدينة، وسماه المؤرخون "عمود بومبيوس" لأنهم قرءوا بين ما تبقى من الكتابة المحفورة عليه حرفي "ب، و" فاعتقدوا أن القائد الروماني بومبيوس، الذي هرب إلى مصر في عهد كليوباترة، هو الذي أقامه بالمدينة، ولكن بومبيوس لم يفعل شيئاً من هذا ولم يترك بالإسكندرية أثراً. ويعرف أهل البلد هذا العامود باسم "عمود السواري".

ولنعد الآن إلى ترجمة المخطوط:

"كان بوروس عوناً لديوكلسيانوس في إخماد ثورة أخيليوس، وكان له فيما بعد عوناً في تشريد أتباع المسيح والفتك بهم ووضع حد لانضمام الناس إلى حظيرة الدين الذي يبشر به رؤساؤهم"

"ولما أمر الإمبراطور جنوده بذبح النصارى المصريين واليونانيين على السواء في مدينة الإسكندرية، كان بوروس يشغل منصب الحاكم، فوجد الفرصة سانحة لإظهار ولائه لقيصر مرة أخرى، كما أظهره من قبل يوم اشترك في إخماد ثورة أخيليوس، التي كان الغرض منها استقلال مصر عن الإمبراطورية الرومانية.

"وكان ديوكلسيانوس يخشى أن يفعل النصارى في الإسكندرية ما كان أخيليوس ينوي أن يفعله يوم أعلن العصيان على روما، أي أن يستقلوا عن سيدة العالم في ذلك الوقت، ويجعلوا من مصر دولة لا تعترف بسلطان روما، كما حدث من قبل"

"أرسل الإمبراطور إلى عملائه ومن بينهم بوروس، يقول: اذبحوهم عن آخرهم ولا تتركوا منهم رجلاً أو امرأة أو شاباً أو رضيعاً على قيد الحياة، واهدموا أماكن العبادة التي يختلفون إليها، وأحرقوا بيوتهم كي لا يبقى منهم أثر بعد اليوم"

"ونفذ العلماء والحكام والزبانية أوامر قيصر، فسالت الدماء في شوارع الإسكندرية، وتحولت أرضها إلى مقبرة"

"ولم يقاوم المسيحيون ولم يقابلوا القوة بالقوة، والعنف بالعنف لأنهم كانوا أضعف من أن يستطيعوا المقاومة، ولم يكن لديهم سلاح يقابلون به سلاح جلاديهم"

"وحاصر الجند فريقاً منهم في المكان الذي نصب فيه بوروس "عمود الخلد" تزلفاً لقيصر. ومن سخرية الزمن أن يمر الحاكم في آن واحد أمام عموده، ويرى جنوده وهم يضربون الهاربين ويجمعونهم حول العمود ليذبحوهم كما ذبحوا غيرهم"

"وكانت مفاجأة وقف الجنود أمامها مذهولين حائرين، عندما اقتحمت الصفوف امرأة على وجهها خمار، واتجهت إلى بورروس، ووقفت أمامه ورفعت الخمار عن وجهها، فإذا هي ابنته بولا، التي كانت تدين بالمسيحية سراً وتخفي أمرها عن أبيها، وتمارس دينها مع رفاقها ورفيقاتها في داخل دار الحاكم، حيث حولت إحدى الحجرات إلى معبد للصلاة"

"وأرادت الفتاة أن تشفع للهاربين كي لا يقتلهم الجند، ولكن بورروس لم يجرؤ على إصدار أمره بالعفو عنهم إكراماً لابنته، وسمع الجنود يقولون له: إذا كانت ابنتك من أتباع الدين الجديد فلابد أن تموت مع الآخرين!"

"وأشار بورروس إلى الجند بأن يتريثوا، واقترب من ابنته، وخاطبها على مسمع من الناس قائلاً لها أن تجاهر أمام الجمع المحتشد هناك بأنها ليست مسيحية، وأنها باقية على ولائها لآلهة روما، ولا علاقة لها بأولئك النصارى غير علاقة الصداقة مع بعض منهم"

"ولكن الفتاة صاحب قائلة لأبيها ولمن حولها من الناس، إنها صديقة الذين يدينون بالدين الجديد لأنها هي أيضا تدين به، وأنها صديقة الشهداء الذين ذبحهم الجند في أنحاء المدينة وتود لو لحقت بهم فاستشهدت مثلهم في سبيل عقيدتها"

"وفار فائر الحاكم لسماعه هذه الكلمات تنطلق من فم ابنته الوحيدة الحبيبة، فوثب عليها، وقبض بيديه على عنقها، وصاح بها قائلاً

أنه يأمرها بأن تجحد بذلك الدين في الحال، وإلا فإنه يخنقها بيده كي لا تلحق به وبأسرته عار الخروج على إرادة قيصر ودين الإمبراطورية"

"فكان جواب الفتاة أنها لن تجحد بدينها وأنها تتقبل الموت من يد أبيها في سبيل ربها"

"وخنق بوروس ابنته، وصاح بالجند قائلاً لهم أن يذبحوا ذلك القطيع ويحولوا ميدان العمود إلى مقبرة تكون جثة ابنته أول جثة تلقى فيها. وتعلقت به الأنظار وهو يغطي وجهه بطرف ردائه ويبتعد على ظهر جواده"

"وفي ذلك المكان، حول قاعدة العمود، ذبح الجند مائة رجل وامرأة أو أكثر، واختلطت جثثهم في حفرة حفرها القتلة في الميدان، ومن بينها جثة بولا ابنة بوروس"

هذا ما جاء في الوريقات التي سطرت عليها ترجمة المخطوط اليوناني فنقلتها كما هي محاولاً قدر المستطاع أن أزيل عنها الإبهام والغموض، ويبدو أن الذي كتبها كان معاصراً لذلك العهد، أو أنه كان سمع القصة ممن عاصر مذابح الإسكندرية.

فهل عمود السواري، أو عمود بومبيوس، هو عمود الخلد الذي نصبه بوروس قاتل ابنته بولا، التي أبت ألا أن تظل وفية لأصدقائها

حريصة على أن يكون مصيرها كمصيرهم، أمينة على الدين الذي اعتنقته فحل في قلبها محل عبادة الأصنام، والولاء لآلهة تقر سفك الدماء؟

وهل حرفا "ب و" اللذان جعلا العلماء والباحثين يعتقدون أن "بومبيوس" هو ناصب ذلك العمود بالإسكندرية، هما الحرفان الأول والثاني من اسم "بوروس" الحاكم المتزلف والأب القاتل؟

فهرس

إهداء ٥

تصدير ٧

طيف نيتوكريس ٩

سفينة فرعون ١٧

رسول فرعون ٢٦

الجميلة أتت ٣٨

رؤيا إخناتون ٤٦

نفرتيتي، أرملة الزوجين ٥٤

سيتي واليتيمة الحسناء ٦٢

عرائس النيل ٧٠

نحن السابقون ٧٨

فرعون ويهوذا ٨٧

قاهر الوحوش ٩٧

جواهر بطليموس ١٠٤

القميص الأبيض ١١٢

مصيف المحبين ١٢٠
معتوقة كليوباترة ١٢٩
عاشقة الأمواج ١٤٠
ذات القلبين ١٤٨
المصريات الصائمات ١٥٦
التنكيت القَاتِل ١٦٧
صَديقة الشهَداء ١٨٠